السنة السادسة　　العدد ٦　　١٥ آذار سنة ١٩٠٣

المشرق

بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

للاب هنري لامنس اليسوعي

إكمالًا لبحثنا عن منشإ الطائفة المارونيَّة وتكوّنها نضيف الى ما سبق من الكلام بعض افادات تتعلّق بحياة القديس مارون الذي خلَّف اسمهُ للطائفة الموما اليها. غير أننا لا نتجاوز الحيّز الجغرافي الذي رسمناهُ فنتكلَّم من ثمَّ على حياتهِ لا من الوجه التاريخي بل من الوجه الجغرافي لاسيما وان هذا الوجه قد كثر تغاضي الباحثين عنهُ حتى الآن فبقيت فيهِ مشاكل كثيرة لا بُدَّ من تفكيك معضلاتها

*

ليس في ايدينا شيء يروي اخبار القديس مارون غير مصدر واحد اصلي اي الترجمة التي تركها توادوريطوس اسقف قورس (١ وهي تركة جليلة القدر يكفي انتسابها الى هذا المؤرخ الجليل للحكم على مكانتها من الاهمية ولولا ايجازها المفرط لما وجدنا فيها مساغًا للانتقاد ونأخذ عليهِ انهُ اهمل الوجه الجغرافي اهمالًا تامًا حتى اننا لا نجد في ترجمة القديس مارون سوى اسم واحد من اسماء الامكنة وسبب ذلك هو انهُ دوَّن ما

١) راجع تأليفهُ المعنون « تاريخ الرهبان » في مجموع الاباء اليونان ج ٨٣ واليهِ نشير في هذه المقالة

دون لحمل معاصريهِ على سلوك طريق الفضيلة بايراد سير الزهّاد والقديسين فلم يخطر لهُ في بال ان يشفي رغائبهم في امور كان يفترض انها معروفة عند جميعهم

وبناء عليه نأسف كل الاسف على عدم التفاتهِ الى هذا الشان الذي لو اراد الكتابة فيهِ لكان وفاهُ حقَّهُ من البيان بغاية الضبط والدقَّة. وهب انهُ لم تكن لهُ معرفة شخصيَّة بالقديس مارون فقد كانت لهُ صداقة بليغة مع القديس يعقوب (١ اشهر تلاميذه الذي أطلعهُ على كل ما يتعلّق بمن يصفهُ هذا المؤرخ اليوناني تارةً بمارون الكبير وتارةً بمارون « الالهي » (٢ . وكأنَّ توادوريطوس خشي في كلامهِ على الابطال المسيحيين الكثيري العدد من تكرار اخبار الخوارق والمعجزات فبالغ في اختصار سيرة القديس مارون بنوع انَّ من يطالعها تتبادر الى ذهنهِ في الحال مسائل كثيرة لا يجد لها حلاً وهي: أين ولد القديس مارون وأين عاش واين دُفن واين هو الدير الذي تسمَّى باسمهِ. فاتماماً لهذه النواقص عزمنا على ان نسرد في الصفحات التابعة كل ما تيسَّر لنا جمعهُ من المعلومات المؤدية على قدر المكنة الى العلم الكافي باحوال الناحية التي تعطَّرت باريج هذا الناسك العجيب ولهذا نضرب صفحاً عن الاطناب في حياتهِ متوسعين بوصف البلاد التي صرف فيها أيامه لان ذلك اعون على فهم ترجمته

١

في القسم الشمالي الشرقيّ من سوريَّة كانت تمتدّ في ذاك الزمان القديم مقاطعة كوماجينة وهي ناحية متَّسعة الاطراف يحدُّها من الشمال جبل طوروس ومن الشرق نهر الفرات ومن الغرب قيليقية. واما من الجنوب فيصعب تحديدها وبناء عليه نرسمها بخطّ غير منتسق يذهب من الفرات الى ما تحت هيرابوليس (منبج) حتى يتصل بجبل امانوس (المادغ) مارًّا تحت مدينة حلب وشماليّ بحيرة العمق بالقرب من انطاكية

هذا هو اعظم اتساع ادركتْهُ كوماجينة عند ما كانت تشتمل ايضاً على المقاطعة « القورسية » (٣ التي دُعيت بهذا الاسم نسبةً الى مدينة قورس حاضرتها وكان موقع

١) راجع في تاريخ الرهبان تراجم تلامذة القديس مارون
٢) Θεσπέσιος
٣) وفقاً لبعض قدماء المؤرخين

هذه المقاطعة الثانية في جنوبي الاولى وسنذكر بُعيد هذا مقدار امتدادها (١ لان الكلام عليها لا يخلو من فائدة كبرى للاطلاع على اخبار القديس مارون

وحتى يكون للقارئ تصوُّر صائب بهذه المقاطعة نكتفي الآن من القول ان كوماجينة تنطبق في الحاضر على قسم من ولايتيّ معمورة العزيز وحلب غير ان الجزء الاكبر من كوماجينة هذه كان في ضمن ولاية حلب اعني انهُ كان يشمل بالتقريب كلَّ متصرفيَّة مرعش ويدخل فيهِ من متصرفية حلب المركزيَّة اقضية عينتاب وكلِّس والباب وصارم وجبل سمعان ومنبج. امَّا من متصرفيـة اورفة فما كان يحتوي غير قضائين غربي الفرات اي جزءًا من قضائي بيرجيك وروم قلعة

وكان الذين استوطنوا هذه المقاطعة من بادئ الامر قبائل الحثيين ومنها امتدُّوا بعد ذلك الى بقية سوريَّة. يدل على ذلك ما عثر عليهِ الباحثون من الآثار التي ابقاها للاجيال الغابرة هذا الشعب الذي لم يُعرف من اخباره حتى الآن شيء كثير (٢. على انَّ القبائل المذكورة ما لبثت ان اختلطت بالآراميين الذين اسَّسوا هناك كثيرًا من الممالك أخصُّها بيت عدين وارباد وكانت قاعدة هذه المملكة الثانيـة مشيَّدة في موقع تلّ أرفاد شماليّ حلب

وكانت كوماجينة في عهد دولة السلوقيين من جملة مقاطعات المُلك الذي اسسوهُ غير انَّها ما لبثت ان استعادت استقلالها وارجعت ولايتها الى ملوك من اهلها. وبعد وفاة انطيوخوس الثالث في السنة السابعة عشرة للمسيح صارت الى الرومانيين فادخلوها في جملة مستعمراتهم غير ان ذلك لم يدم الَّا سنوات قليلة لانها في السنة الثامنة والثلاثين رُدَّت الى ابن الملك انطيوخوس السابق ذكرهُ وبعد مرور اربع وثلاثين سنة اي في السنة الثانية والسبعين ضُمَّت بوجه نهائي الى المستعمرات الرومانيَّة وكانت سميساط حاضرةً لها (راجع ماركاردت في نظام المملكة الرومانيَّة. مج ٢ من الترجمة الافرنسيَّة ص ٣٤١ و ٣٤٢)

امَّا سكَّان المقاطعة المذكورة فكانوا آراميين أصلًا ولغةً. نعم ان الآداب اليونانيَّة

---

١) راجع استرابون (ك ١٦ ف ٢) وبلينيوس (ك ٥) الخ
٢) راجع المشرق (٥:٧٥٩)

كانت قد دخلت البلاد بدخول السلوقيين واصابت نجاحاً جديداً في أيام الرومانيين غير ان هذا النجاح كما نبّه على ذلك العلّامة نُلدك لم يتصل الى درجة امتدَّت معها اللغة اليونانيَّة او الآداب اليونانيَّة امتداداً عظيماً بل حدّ ما فيه ان صنائع المغرب وطريقة المعاش فيه قد فازت بشيء من التقدّم وان بعض عناصر الحضارة الغربيَّة قد تسرَّبت الى افكار القوم المتمدنين ولغتهم. قال نُلدك: « امَّا القول بان اللغة السريانيَّة قد زالت من المراكز المتهذّبة فهو من قبيل المبالغة والغلوّ فان الآراميَّة كانت لغة قديمة استعملها اهل التمدن في التخاطب والكتابة بينما كان القوم في رومية وارباضها لا يعرفون في ذاك الوقت حروف الهجاء. وفي ايام ملوك الفرس الذين كان قورش الملك اشهرهم اتُخذت الآرامية لغة رسميَّة في مصر وفي آسية الصغرى ايضاً اي في خارج موطنها الاصلي. وفي ايام الامبراطرة الاولين الرومانيين نجد الآراميَّة ايضاً كلغة رسميَّة لا في تدمر وحدها بل ايضاً في المملكة النبطيَّة حتى بلاد العربيَّة في الجهة التي تُعرف اليوم بالحجاز اي في ناحية غريبة عن منشإ اللغة المذكورة على ان ذلك لم يكن نتيجةً لتغلبها السالف بدليل ان آثار تدمر والنبط تنطق بان هذه اللغة اصابت نموّاً وانتشاراً فيما بعد ايام ملوك الفرس وعلى ذلك فقد كانت اللغة الحيَّة في سوريَّة وبها كان القوم يتخاطبون ويتكاتبون

« نعم ان اليونانيَّة كانت من زمان قد حلَّت محلَّها في الاصطلاح الرسمي ولكن القوم في ما خلا ذلك لم يكونوا يكتبون ولا يتكلمون الّا بالآراميَّة ولا يصحّ في كل حال تعليق اهميَّة كبيرة على ما كان يعملهُ بعض اهل المدن من تكليف معلمي المدارس بكتابة بعض تواريخ يونانيَّة على مدافن امواتهم مع انهم يكادون لا يفقهون منها كلمة واغلب هذه التواريخ مشوَّهة بالاغلاط فوق ما يمكننا وصفهُ (١ » انتهى كلام نلدك

فنُستدل ممَّا مرَّ بيانهِ ان مقاطعة كوماجينة كانت كبقيَّة سوريَّة آراميَّة محضة كما سبق لنا اثبات ذلك في غير هذا الموضع. امَّا مستخدمو الحكومة وقليلون غيرهم من افراد السكَّان فكانوا يفهمون اليونانيَّة ويتكلمون بها لا اكثر

وفي اثناء القرن الثالث والقرن الرابع تقسَّمت سوريَّة تقسيماً ادارياً جديداً

١) راجع المجلَّة الاسيويَّة الالمانيَّة (ZDMG) سنة ١٨٨٥ ص ٣٣٣

وسنذكر تفصيل هذا الامر واخباره في خلال مقالتنا هذه. امّا كوماجينة فتسمَّت على إثر التقسيم المذكور بسوريّة الفراتيّة نسبةً الى الفرات وجُعلت هيرابوليس (منبج) قاعدة لها وجرى كذلك بعض التعديل في حدّها الجنوبي فتمدّد الى الجنوب ولاسيا في النواحي القريبة من الفرات غير انهُ سُلخت عنها ناحية حلب وأُلحقت بسوريّة الاولى

وكانت في جنوبي كوماجينة ناحية تدعى «القورسية» ولا بدَّ لنا من توفية الكلام حقَّهُ على هذه الناحية نظرًا لما يترتّب عليهِ من الفائدة في المسألة التي نحن بصددها

وكان لهذه التسمية كما لغيرها من التسميات الجغرافيَّة امتداد يعظم ويقلّ بحسب الازمنة ففي ايّام استرابون كانت تُطلق على ارض واسعة تذهب من جبل امانوس الى الفرات وتشمل خلا ناحية قورس ناحيتي حلب ومنبج. غير انّها بعد ذلك كأيام القديس يوحنا فم الذهب والقديس مارون مثلًا انحصرت بناحية مدينة قورس فعن هذه الناحية الأخيرة نتكلَّم الآن ولمزيد التوضيح ندعوها «القورسية الصغرى» وسنبحث عن وصفها في كتب توادوريطوس الشهير الذي تولى اسقفيتها مدَّةً طويلةً من السنين

كانت مسافة القورسية الصغرى اربعين ميلًا في عرض مثلها وكانت فيها جبال معتدلة الارتفاع بين سبعمائة وثمانمائة متر معظمها كاسٍ بالغابات. ومع انها ليست بذات ثروة وغنى كان فيها نحو ثمانمائة محلّ بين دساكر وقرى كبيرة كما يتبيّن ذلك من رسالة لتوادوريطوس كتبها الى القديس لاون الكبير فيها يخبر البابا المشار اليهِ انهُ يعتني بثمانمائة كنيسة(١). ولم تكن فيها سوى مدينة واحدة اعني بها قورس التي باسمها تسمَّت الناحية كلها. وسنذكر كيف كانت المدينة في ايّام القديس مارون غير أنّنا قبل ذلك يجب ان نعيّن موقعها وموقع الناحية التي كانت قاعدة لها ومركزًا مدنيًا ودينيًا

على مسافة ستين كيلومترًا شماليّ حلب تجد مدينة كلّس التي هي قصبة قضاء يُسمَّى باسمها واذا توغلتَ في الجبال على مسافة خمسة عشر كيلومترًا نحو الشمال الغربي تدلّك الخارطة على شبه وادٍ ففي هذا الوادي كانت مدينة قورس التي كان توادوريطوس اسقفًا لها وحتى اليوم ما زالت خرائبها ناطقة بكبرها واتساعها واهل البلاد يسمونها

---

١) راجع الرسالة ١١٣ وفيها يعترف توادوريطوس باولية الحبر الروماني. راجع ايضًا الرسالة ٤٢

« قورس » او « كورس » وليس بين ايدينا لسوء الحظ وصف مدقّق لهذه الجوانب والبلاد المجاورة لها لأنّنا لم نزرها كما ان السيّاح القليلين الذين زاروها لم يتركوا لنا شيئاً من نتيجة ابحاثهم عنها. وآخر من زارها من السيّاح هو المسيو برتلمي ترجمان قنصلية فرنسة في حلب وذلك في شهر ايلول سنة ١٨٩٤ غير انّنا لم نرَ من تقريره سوى خلاصة يسيرة ظهرت في نشرة مجمع الكتابات لسنة ١٨٩٥ (١ تتضمن ثلاثة رسوم شمسيّة تمثّل « الخربة قورس العظيمة » ووُجد ايضاً بين اوراق المستشرق الشهير غيلدميستر مقالة عن قورس لم تُنشر بالطبع (ZDPV, XIV, 82) وكل هذه الناحية التي يهمّ البحث عنها كثيراً توضيحاً لمنشإ الطائفة المارونيّة وتاريخ النصرانية في سوريّة تستحقّ ان يقصدها الباحثون وينقّبوا في آثارها بالتفصيل والتدقيق. غير انّنا تعويضاً عن سكوتهم بذلنا الجهد حتى نجمع من الكتب كل ما لهُ بالقورسية علاقة قريبة او بعيدة وسنجعل جلّ اعتمادنا في هذه المسألة على مصنّفات تاودوريطوس ونتخذها إماماً لنا في بحثنا هذا

٢

اذا تابعنا فوريو (٢ وجب القول بان قورس من اقدم المدن السوريّة وانّها سبقت دمشق لأنّ هذه على موجب قوله قد أسستها احدى الطوارئ التي اتت من قورس. غير ان تعليل فوريو منقوض لان آية النبي عاموس (٩: ٧) التي يعتمد عليها لا تصح لهُ الّا اذا اثبت انّها تشير الى مدينة سوريّة لا الى ناحية من اسية الصغرى مع ان هذا الراي الثاني اقرب واوفر احتمالاً (٣

وزعم آخرون انّها تأسست اكراماً واجلالاً لقورش العظيم ملك الفرس ولعل هذا الزعم ناجم عن كتابة بعض المؤرخين البيزنطيين الذين كانوا يكتبون Κύρος بدلاً من (Κυῤῥος). وكان موقع المدينة في ناحية قليلة التضاريس وكان فيها على عهد الرومانيين طريقان رومانيان أحدهما يتجه الى الرها والآخر الى حماة (٤ ويظهر من التاريخ انّها

(١ راجع Cemptes-rendus de l'Acad. des Inscriptions, 1895, p. 469

(٢ Furrer, ZDPV, VIII, p. 39

(٣ راجع قاموس الاداب الكتابية لفيكرو في مادة Cyrène

(٤ كتاب المسالك لانطونين Itinerarium Antonini (ed. Parthey, 84, 86, 87)

كانت اذ ذاك مهمة لأنها اعطت اسمها الى ناحية كبيرة مثل « القورسية » التي كانت تشتمل كما سبق القول على نحو النصف من مقاطعة كوماجينة غير ان اتساعها تبدل اخيرًا بالضيق كما تقدمت ايضًا ملاحظة ذلك

ويحتمل ان تكون قورس قد ابتدأت في هذه الفترة تنحطّ قليلًا عن مقام مجدها غير انها كانت في ايام توادوريطوس والقديس مارون موقعًا حصينًا يحمي قلاع ناحية الفرات (١ واستمرّت كذلك حتى الفتح العربي فألحقت فيه بناحية العواصم (٢ وفي ايام عبد الملك ضُربت فيه سكّة (٣ ممّا يثبت انها كانت اذ ذاك صاحبة شان ومقام وقد استرجعها نور الدين من الصليبيّة ومن بعده لم نعثر لها على ذكر ونظن انهُ ما طال الامر حتى أُهملت وهُجرت غير اننا لا نجسر على متابعة من قال بان نور الدين المذكور هو الذي اخربها . وهذا كل ما نعلمهُ من تاريخ قورس المدني

وفي ايام توادوريطوس التي نهتم لها بنوع خاصّ لانها كانت بالوقت نفسه ايام القديس مارون تظهر قورس كمدينة صغيرة لان المؤرخ المذكور يسميها « πολίχνη » (٤ غير انهُ يجب الحذر من اتخاذ هذه التسمية على حرفيتها فكما ان اهالي لندن وباريس الذين يضارعون او بالحري يتجاوزون شعب مملكة او اكثر قد ينزّلون سائر المدن منزلة اماكن حقيرة لا اهمية لها هكذا يمكن ان يكون قد خطر مثل هذا الخاطر للمؤرخ توادوريطوس الذي انتلف رونق محاسن انطاكية وطنه وجزيل اتساعها . ومعلوم انها كانت اذ ذاك ثالثة حواضر العالم المتمدن او على الكثير رابعتها . وبناء عليه سترى بعد هذا انهُ لم ينل عزاء تامًا بسبب اضطراره الى فراق انطاكية والاقامة في حاضرة اقليمية كمدينة قورس التي يشهد باهميتها الحقيقية اتخاذها سُكنةً للعساكر ما بين طريقين عظيمين رومانيين

والظاهر انها لم تحوِ غير قليل من الآثار التي وفّرها التمدّن اليوناني الروماني في المدن السوريّة كالاقنية والمناهل والاروقة المغطاة المستندة الى اعمدة ممّا كان يُبنى في

---

١) راجع C. R. Acad. Inscript., 1902, p. 513

٢) راجع فتح البلدان للبلاذري ص ١٣٢ , ١٤٩ وقدامة ص ٢٥٣ (طبعة دي غوي) . اما العواصم فقد ذكرها في المشرق (٦ : ١٣٢)

٣) المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG, 1889, p. 984)

٤) راجع مجموع آباء اليونان لمين (ج ٨٣ ص ١٣٢١)

الشوارع المهمَّة ليقي المارة في ايام الصيف من حرّ الشمس وفي أيام الشتاء من الامطار (١ وكل ما احتوتهُ من هذا القبيل قد تمَّ بمساعي وعناية اسقفها العظيم الذي لا نبالغ اذا سميناهُ مؤسسها الثاني

قال توادوريطوس المذكور: «اني شيدتُ في قورس من اموال الكنائس اروقةً عموميَّة وبنيت جسرين عظيمين واعتنيت بالحمَّامات العموميَّة ثم انني اتخذت قناة وجررت بها مياه النهر القريب وهكذا متَّعت المدينة بالمياه الغزيرة التي كانت محرومةً منها قبلًا » (٢ وكانت قورس خاليةً من طبيب فسعى توادوريطوس كل السعي في حمل احد الاطباء على الاقامة بمدينته الاسقفية (٣ ولهُ غير ذلك ايضًا من الاعمال الدالَّة على اهتمامه العظيم بالحاجات الزمنية لابناء رعيته

واننا لنأسف عن عدم تمكننا في هذا المبحث الجغرافي خاصةً من الاطناب في مآثر هذا الرجل العظيم الذي يُعدُّ من مشاهير عصره ونوابغ دهره فقد كان متسع المدارك رفيع الفهم محتقرًا حطام الدنيا وكان مع ميله الى المفاخر والمعالي يقدم على العظائم ويبذل كل مقتناه في سبيل الفقراء والآثار النافعة للجمهور. وكان من الذكاء على جانب عظيم يرتاح الى الاطلاع على كل شيء والوقوف على كنهه وحقيقته. ومن الخطابة في اعلى مقاماتها لا يفوقهُ فيها احد غير فم الذهب. ومن المنصب الاسقفي في اسمى مراتب الهمة والغيرة والتقى بحيث يصح ان يُجعل إمامًا وقدوة لكل الاساقفة في كل عصر (٤ ولهذا كان احقّ مؤرخ بتدوين سير الابطال المسيحيين كالقديس مارون الذي لولا آثار قلمه لجهلنا ترجمتهُ

غير ان ما نعلمهُ من الجغرافية الطبيعية لقضاء كلّس يشرح ويتمم وصف القورسية

---

١) كانت كل المدن السوريَّة المهمَّة مشتملة على مثل هذه الاروقة كما يتبيَّن ذلك من مشاهدة تدمر وجرس (عجلون). والعمد الكثيرة المتراكمة حتى اليوم في ميناء جبيل وشوارعها هي من بقايا الاروقة المذكورة ٢) تاريخ الرهبان (فصل ٢١ والرسالة ٨١)

٣) يتكلم توادوريطوس في الرسالتين ١١٤و١١٥ عن كاهن اسمهُ بطرس على التطبيب زمانًا طويلًا في قورس. واكتشفوا ايضًا في ديابيس روية حجر ضريح لكاهن من المتعاطين صناعة الطبّ. غير ان القوانين التي ترتَّبت بعد ذلك حظرت الطب على رجال الاكليروس

٤) ان سيرة توادوريطوس هي من السير البالغة حدّ الكمال تستحق ان يطالعها كل من اختارهم المولى لحمل عبء الاسقفية الثقيل

مثلما يُفهم من الافادات المنثورة في كتابات توادوريطوس فان البلاد كلها مشغولة بجبل الاكراد وهو عبارة عن أسناد اي جبال صغيرة منفصلة عن سلسلة امانوس الكبيرة ولم تزل هذه الجبال حتى ايامنا كثيرة الآجام والغابات (١ بحيث تدهش جميع السيّاح الذين اعتادوا النظر الى تعرّي بقية سوريّة من الاشجار غير انهم اذا بحثوا عن القرى الثمانمائة التي كانت في القرن الخامس لا يقفون لها على اثر

وقد علمتَ ان توادوريطوس يتكلم على نهر جرّهُ الى المدينة وعن جسرين كبيرين شيَّدهما هناك. وفي الحقيقة انهُ تمرّ في جوار قورس عدّة انهار منهـا نهر عفرين اخص السواعد الشماليَّة لنهر العاصي. وبالقرب من قورس يلتقي بالنهر المذكور نهران صغيران احدهما صابون سو والثاني جاموس ديرسي ولعلَّ مياه نهر صابون القريب من الخربة قورس هي التي جرّها توادوريطوس الى كرسي اسقفيته

ومع قرب الانهر المذكورة كانت بقية الناحية القورسيَّة كثيرًا ما تصاب بالجفاف وقد ذكر توادوريطوس خبر جفافٍ اصابها في رسالة وجهها الى اريوبنداس يسألهُ فيها ترك الديون التي لهُ على المزارعين باراضيه الواسعة في القورسيَّة (الرسالة ١٣) ويذكر ايضاً خبر جفاف آخر في ترجمة بوليخرونيوس (٢

هذا ما استطعنا جمعهُ من المعلومات عن مدينة قورس وجيرتها غير اننا لم نقف على معلومات تُذكر عن سائر اماكن القورسيَّة لان توادوريطوس لا يشير في ما خلفهُ من الكتابات الّا الى قليـل منها مثل اسيكا ونيتيس وتيليا وثرغالا وراما وسيتًا ونيارا ونيموزا (٣ ولم يلحق بهذه الاماكن شيئًا من الاوصاف ما خلا نيارا فانهُ وصفها بانها مدينة وقد رأيتَ ان لاكثر الاماكن السابق ذكرها اسماء آرامية وهو امر طبيعي في ناحية آرامية خالصة كما مرَّ لنا اثبات ذلك في الكلام على كوماجينة إجمالًا وكما سنثبتهُ بعد هذا في الكلام على القورسيَّة خصوصاً

---

١) مماَّ يجب التنبيه اليهِ هو انهُ يوجد بين اشجار هذه الغابات اشجار مثمرة تنبت من تلقاء نفسها. وهكذا كانت الحال في ايام توادوريطوس لانهُ يخبر عن القديس يعقوب الناسك الشهير انهُ كان يقتات من ثمار اشجار الغاب (ج ٨٢ ص ١١٠٩)

٢) راجع مجموع الآباء اليونان لمين (ج ٨٢ ص ١٣٦١)

٣) في المجلّد نفسهِ ص ١٢٢٩ , ١٢٣٢ , ١٢٥٢ , ١٢٥٤ , ١٢٥٧ , ١٢٥٩ , ١٢٦٠ , ١٢٦٤

ولم يكن سكّان القورسيّة من ذوي الغنى والثروة بدليل ان اسقفهم كان يضطرّ الى اسعافهم والقيام بالاشغال العموميّة لديهم. وكان في بعض المرّات يرفع العرائض من اجلهم الى الامبراطورة بولخرية القديسة وغيرها من كبراء المنصّبين (١ وهي تدل من جهة على شهامة قلبه وحنانه ومن جهة ثانية على شقاء الاهالي الذين يبظتهم الضرائب وثقلت عليهم جدًّا حتى ان الكثيرين منهم لعجزهم عن القيام باعبائها كانوا يؤثرون التسوّل وهجر الاوطان (الرسالة ٤٢) (له بقيّة)

حِكَم بُزُرْجُمْهَر

عُني بنشرها الاب لويس شيخو اليسوعي (تتمّة)

وسُئل بزرجمهر: من اكثر الناس عداوةً. قال: الفاحش الجامد الكفّ. سئل: من اكثر الناس صديقًا. قال: البارّ بالناس الليّن الكلمة. سئل: ايُّ السرور احلى. قال: سرور عواقب الاحتمال. سئل: اي الشهوات اعدل. قال: تجربة العقلاء ذوي اللبّ والحياء. سئل: اي الامور اعسر على صاحبها. قال: التماس رضا الاشرار. سئل: اي الاشياء اتعب تعبًا. قال: خدمة الامراء وصحبتهم. سئل: اي الاشياء اسرع تقلّبًا. قال: قلوب الملوك. سئل: اي شيء اسرع انقطاعًا. قال: مودّة الاشرار الجهّال. سئل: اي شيء أبين جورًا. قال: اللسان الكذوب. سئل: اي شيء افسد لقلوب الناس. قال: الظنّة والتهمة. سئل: اي شيء اشدّ تهجينًا لصاحبه. قال: الصَّلَفُ والمزاح للسوقة والبغي في الحروب وصغر الخطر وقلّة الحياء في النساء واتباع الهوى للعلماء والكذب لذي الشرف. سئل: اي الامور افضل في صلاح الدين. قال: الشكر لذوي النعم. سئل: ما بال العقلاء لا يُكثرون ملامة الجهّال. قال: كما لا يلومون العميان على قلّة البصر والمشايخ على كبر السنّ كذلك لا يلومون الجهّال على جهالتهم. سئل: ما افضل ما يعتقد اهل العقول من الخصال المحمودة. قال: قلّة الاسف على ما فات وقلّة الحزن

١) راجع رسائله ٤٢-٤٥

عند المصائب وترك الرجاء لما يُخاف فيه الغـدر وترك الفشل والخوَر في الشدّة وقلّة البطر في الرخاء. فهذا ما يعتقد عليه اهل العقول. سئل: ما شرّ طبائع الامراء (93v). قال: الجبن عن الاعداء والبخل عن الاعطاء وترك مؤامرة العقلاء وسرعة العجلة في الاشياء. سئل: اي شيء اصعب مقاساةً لصاحبه. قال: التكلّف لاخفاء الفاقة. سئل: اي شيء اشدّ من الفاقة. قال: الاستكانة اشدّ منها. سئل: اي السعادة افضـل. قال: ما وافق منها القضاء والقدر. سئل: اي خصلة واحدة في الكهول والشبان افضـل. قال: امّا في الكهول فالحلم. وامّا في الشبّان والأحداث فالنشاط. سئل: اي شيء اسعـد لطالبه. قال: من طلب حقًّا فادركهُ. سئل: من اسعدُ السعداء. قال: العاقل الموفّق الرشيـد. سئل: ما افضل مواقع الخير. قال: المؤاساة عند الشدائد. سئل: ما امارة العقل. قال: تعلّم الادب الصالح. سئل: بما تُصلَح الطبائع المختلفة. قال: بالصبر والحلم. سئل: بما تتمّ مروءات الاخوان. قال: بالمثابرة عليها. سئل: باي شيء يُعرف العقل وباي شيء يُعرف الخُلق. قال: امّا العقل فيُعرف بالحلم والنظر في العواقب. وامّا الخُلق فيُعرف عنـد منالة السلطة واصابة الثراء لانهما تُظهران من صاحبهما ما لم يكن يُعرف به. سئل: ما احقّ ما يحتاج اليه العاقل. قال: التمييز بين الحقّ والبـاطل. سئل: اي شيء يزيد العاقل عقلًا ويزيد الجاهل جهلًا. قال: امّا ما يزيد الجاهل جهلًا فمعاشرتهُ للجهال الذين يُزيّنون لهُ جهلهُ ويُصوّبون لهُ رأيهُ فيزداد عند ذلك حمقًا وجهلًا. وامّا ما يزيد العاقل عقلًا فمجالسته العقلاء والاقتباس من آرائهم. سئل: اي شيء ازين بالعلماء واي شيء أزين بالشجعاء واي شيء ازين بعوامّ الناس. قال: لا شيء ازين بالعلماء من الصدق ولا بالشجعاء من الصبر ولا بسائر الناس من سلامة القلوب. سئل: فهل يُغيّر قلوبَ العقلاء المالُ. قال: ليس بعاقل من يغيّر قلبهُ المال. سئل: اي شيء افضل للعاقل. قال: اجتناب الآثام. سئل: اي خصلة هي شرّ من اعجاب المرء بنفسه (94r). قال: انزالهُ نفسه فوق قدرها. سئل: الشحّ والبخل امرهما واحد ام مختلفان. قال: هما مختلفان. قيل: فما اختلافهما وما بيان ذلك. قال: امّا البخل فامساك ما يُنبغي ان يُعطى. والشحّ طلب ما ليس يحقّ لهُ. سئل: ما افضل ما يعمل به الرجل لله ولنفسه ولسلطانه ولاخوانه ولاهله ووطنه. قال: اما لله فالشكر على نعمائه واحسانه. واما لسلطانه فالنصح والطاعة. واما لنفسه فالاجتهاد في اصلاح معاشه. واما لاخوانه فالصلة والبذل والمؤاساة. واما للاهل والولد

فحسن التأديب وكثرة الرحمة واللطف والبرّ. سئل: ما بال العاقل لا يشتد حزنهُ وهمّهُ في وجهِ والجاهل يشتدّ ذلك عليه. قال: لان عقل العاقل يعلو همّهُ وحزنهُ فيقهرهما. سئل: عن موقع الولد من القلب. قال: ان الولد يطيّب لابيه طعم الحيوة ويخفّف عنهُ ثقل الموت مع بقاء الذكر وحسن المعونة على الدهر. سئل: ما افضل المال. قال: ما أُنفق منهُ. وما لم يُنفق منهُ فليس لصاحبه. سئل: ما بال العقلاء يفرحون بالمال مع عظيم وزرهِ. قال: لما يحبون من اكتساب الأجر واصطناع المعروف فيه. سئل: اي الملوك افضل. قال: الذي يأمنهُ البريّ ويخافهُ المذنب. سئل: من اغنى الناس. قال: اقنعهم بما رزق الله

(ومن كلامهِ الرصين) لا نُبل الّا مع نزاهةٍ ولا ذهن الّا مع عقل ولا صدق الّا مع وفاء ولا وفاء الّا بسلامة صدرٍ. اصل العقل العفاف وثمرتهُ مجانبة الآثام. واصل العفاف القناعة وثمرتهُ قلّة الرياء. واصل النجدة القوّة وثمرتها مجانبة البغي. واصل العمل القدرة وثمرتها السرور. ومن حاول الامور احتاج الى ستّ خصال: الادب والتجارب والاعوان والفرصة والتوفيق والاجتهاد وهنّ ازواج. فالتجارب والادب زوج ولا يكمل الادب الّا بالتجارب (94ᵛ) ولا التجارب الّا بالادب. والاعوان والفرصة زوج لا يُنتفع الاعوان الّا بالفرصة ولا بالفرصة الّا مع الاعوان. والتوفيق والاجتهاد زوج فالاجتهاد سبب النجح والتفريط سبب الخيبة. والسبب الذي يدرك به العاجز حاجتهُ هو الذي يحول بين المرء وطلبتهِ. خمسة من طبائع العلماء: ترك الاسف على ما فات وترك الفرح بما يُوتى وترك الرجاء لما لا يُرجى وتجنُّب البطر في الرخاء وتجنب الاستكانة في الشدَّة. سبعة من طبائع الجهّال: الغضب في غير شيء. والاعطاء في غير حق واعجاب المرء بنفسه وكثرة التبسم بين الناس وتضييع الشيء. وكثرة الكلام في غير نفع والثقة بمن لا يؤمن غشّهُ. اول العلم الصمت والثاني الاستماع والثالث الحفظ والرابع العمل به والخامس نشرهُ وافضلهنّ طاعة الله فيه. ينبغي للعاقل ان يجالس العلماء فانهُ ان اصاب حمدوهُ وان جهل علّموه وان احتاج اليهم نفعوهُ ولا يجالس الجهّال فانهُ ان اصاب لم يحمدوه وان احتاج اليهم خذلوه. وان ممّا يدلُّ على علم العالم معرفتهُ بما يُدرك من الامور ورغبتهُ في المكارم واظهارهُ علمهُ في الناس ومعرفتهُ باهل زمانه وبصرهُ بالناس وارشادهُ المستشير وترك مخالفة خلطائه والتسوية بين لسانه وقلبه ولا يسبقهُ لسانهُ الى ما يكتمهُ

قلبهُ . قال بعض من حضر من القوم: أَيها الحكيم اي شيءٍ مما يؤتى المرءُ خيرٌ في دنياه وآخرته . قال: غريزة عقلٍ . قال: فان حُرِمَهُ. قال: صديق حبيب ومشاور لبيب. قال: فان حُرِمَهُ. قال: ميتة قاضية . قال آخر: ما ثمرة العلم . قال: محبّةُ الناس لصلاحه واخذه بالوثيقة لنفسه . قال آخر: فما افضل ما اتاه العاقل لصلاح دنياهُ وآخرتهِ . قال: الاستماع من العلماء والقبول منهم والتقدُّم في العمل قبل وقته وحسن (٩٥٣) الروِيَّة فيما يأتي وتجنُّب الطغيان عند القدرة وترك الاستكانة عند النائبة ولا يرتكب سوءًا قد يسوغ لهُ ولا يحزن على ما لا محالةَ واقعٌ بهِ ولا يحاول ما ليس من شأنهِ ويُعامل العدوّ بما لا يخاف لائمة الناس فيهِ . ومن ثمرة العلم الكفّ عن التأنيب في الشيء الذي ليس التأنيب فيهِ بنافع واتخاذ التجارب منارًا فيما يحاول من الامور ولا يحمد ما ليس لهُ حقيقة والمباعدة من سرورٍ تكون عاقبتهُ ثبورًا . ولا يطلب الراحة بالتواني ولا يعمل عملًا يخاف ان يورثهُ ندامةً ويحتمل النصَب فيما تُرجى فيهِ المنفعة ويرضى بالحقّ اذا لزمهُ . وقيل لهُ: أَيها الحكيم لكل انسان حاجة ولكل حاجة سبيل فمن اصاب ذلك السبيل نجح ومن اخطأ خاب فما ذلك السبيل . قال بزرجمهر: ان سبيل ذلك درك الدنيا والآخرة ولا سبيل الى دركهما الّا بالعقل . والعقل نوعان: نوع مطبوع ونوع متعلَّم . فالمطبوع خلقةٌ تفرَّد بها الخالق والمتعلَّم مستفاد من المطبوع . ولا سبيل للمتعلم الى التعلُّم الّا بصحة الطبع وقد قيل: انّما الانسان عقل في صورة فاذا اخطأهُ العقل ولزمتهُ الصورة لم يكن انسانًا كاملًا وانّما هو تمثالٌ بلا روح فمن طلب الادب فهو العاقل المتعلم فليعرف الاصول فانهُ اذا عرف الاصول اكتفى بها عن الفروع فاصل الامر في الدين ان يعتقد معرفة الله تعالى ومخافته ويشهد ان لا إله الّا الله ويؤمن ببعثهِ وقيامتهِ ورسله ويُفوّض المشيئة اليهِ . واصل الامر في المعاش الّا يُطلبَ الّا من حِلّهِ وكريم مطالبه وتُجتنب المطالب الخبيثة والمكاسب الدنيَّة . واصل الامر في الاخوان ان يُنتقى منهم اخوان الصفا الذين ان احتاج اليهم واسَوهُ واذا زلَّ استقالوهُ واذا وقع في نائبةٍ لم يسلموهُ اليها. واصل الامر في الكلام السكوت عن كثير منهُ ولا تتكلّم الا عند اصابة (٩٥٧) الفرصة فان الكلمة في غير موضعها تذهب بلا حلاوة ولا طلاوة . واخزن كلامك كما تخزن نفقتك وزِنْهُ كما تزِن دراهمك وخذ منهُ بقدرٍ وكُن منهُ على حذرٍ . واصل الامر في الطعام ان لا تحمل على معدتك الّا بقدر طاقتك وقوتك وقم عن المائدة وانت تشتهي ما عليها من

الطعام. واصل الامر في لهوك ولذّتك ان تجعل لذلك اوقاتاً معلومةً وتجعل لذلك غايةً فاذا بلغت الغاية او قاربتها فدَعْها. واصل الامر في العبادة ان تحمل عليها نفسك في ليلك ونهارك ولا تؤخر شيئاً هممتَ به منها لغدٍ واستغنم الحسَنة الواحدة تعملها والسيئة الواحدة تتجنبها. فهذه الاصول التي تدور عليها الاشياء. ومنها تتشعب الفصول فاحمدُ الناس من اخذ بها وعمل بجلّها ولم يمِل به الى الهوى والى ما خالفها فان اتباع الهوى مفسدة للدين والعقل ومن رآه بالراي فاتنا الفضل لمن كان عقلهُ غالبًا لهواهُ. واحقُ ما شغل به المرء نفسهُ بعد احراز دينه معاشهُ الذي فيه صلاح دنياه والقوَّة على امر آخرته. ولا ينبغي للعاقل ان يفرّط فيه من اجل وجوهه وابعدها من الدناءة والجشع فان لكل رجل سبباً يطلب فيه معاشه ويتأتى لهُ فيه امّا رفيعاً واماً دنيًا واماً بين ذلك ولا يحسن بذي العقل والدين ان يطلب من المعاش الّا قصداً لافضل مطالب الرزق وتجنُّب ما يقبح منهُ ويكون شيئاً عليه

(قلنا) هذا ما عثرنا عليهِ في كتابنا المخطوط من حكم بزرجمهر وقد جمعنا في مجاني الادب اقاويل غيرها كثيرة لهذا الحكيم تجدها في الجزء الاول (العدد ١٢٥) وفي الثاني (ع ١٠١ , ١٥٠ , ١٥٣ ,١٨٦ ,١٩٦ , ٢٠٤ , ٢١١) وفي الثالث (ع ٦١ , ١٥٢) فعليك بها وهي من اجلّ الحكم

الأُسرة النبيلة

او خلاصة اخبار بيت ابيلا

للاب لويس شيخو اليسوعي

انَّ في بلادنا السوريَّة أُسرًا فاضلة قدمتها من الاقطار الغربيَّة منذ زمن مديد فتوطَّنتها وانتشرت فيها واكسبتها فضلًا على فضل وصار تاريخها كقسم من تاريخ الوطن لا يجوز ان يبقى مطمورًا في زوايا النسيان

ومن جملة هذه الأُسر الشريفة التي وقفنا على بعض اخبارها آل ابيلا الذين لهم في صيداء ونواحيها الذكر المستفيض احببنا ان ندوّن خلاصة تاريخهم قبل ان تأخذهُ يد الضياع

*

انَّ في جنوبيّ صقلية بين افريقية واوربَّة جزيرةً تُعدّ كفاصل طبيعيّ بين العالمين الشرقيّ والغربيّ ألا وهي جزيرة مالطة التي توالت عليها الدول من فينيقيين ويونان ورومان وعرب واسبان وفرنسويين وانكليز لما رأوا في ملكها من الموقع الحريز والحصن المنيع مع سهولة مراقبة سواحل اوربَّة وشماليّ افريقية. ففي هذه الجزيرة اشتهرت اسرة ابيلا التي منها الفرع الذي قدم سواحل الشام

وممَّن افادنا عن اخبار هذه العائلة صاحب تاريخ جزيرة مالطة الكاتب شِيَنْتار (Ciantar) الذي نشر تأليفهُ بالطبع سنة ١٧٨٠ فافرد لذكر بيت ابيلا فصلًا في كتابهِ الرابع لخَّصهُ عن كتَبة أثبات سبقوا عهدهُ. ويستفاد من قولهِ انَّ اصل اسرة ابيلا من بلاد قطالونية من اعمال اسبانية واورد مصداقًا لقولهِ شهادة المؤرخ برزد مستري (Mestre) الذي ذكر في تلك البلاد بيتين عُرفا بهذا الاسم احدهما في بناديس والآخر في أمبوردو

ثم انتقل بعضهم الى مملكة بلنسية واتَّصلوا بخدمة ملوك اراغونية فنالوا عندهم المراتب السنيَّة وصاروا لهم عمَّالًا في صِقلّية وقد ذكر الكاتبان مونيوس (Mugnos) وزوريتا (Zurita) قوماً بهذا الاسم عُرفوا في قطانية من مدن تلك الجزيرة كَبْتَنْغر ابيلا وابنهِ جاكومو في تاريخ سنة ١٣٤٢ واشتهر في مدينة سان فيليب دارجير منهم غوليلمو دي ابيلا في تاريخ سنة ١٣٩٢ او ١٣٩٣. وبعد زمن قليل قلّد هؤلاء الثلثة حكم هذه المدينة بموجب رقيم ملكي تاريخهُ ٥ تموز من سنة ١٣٩٨

وكان سبقهم الى الرتب العالية في مالطة ريتد ابيلا فانَّ هذا انتقل من صِقلّية الى تلك الجزيرة نحو سنة ١٣٥٠ واظهر في تدبير الامور وسياسة المملكة اقتدارًا عظيمًا ففُوّضت اليهِ في ٢٣ ايَّار من سنة ١٣٥٩ حكومة مالطة. ولدينا صورة المنشور الذي يخوّل ريتد هذا المقام السامي وهو مكتوب باللاتينيَّة بامضاء لودوك وفرتونيو كاربوزيو بموجب امر ملك اراغونية والملكة امرأتهِ

وقد اشتهر في مالطة بعد ريتد المذكور احد ابنائهِ يدعى برتولوميو. فانَّ هذا الرجل المحنَّك بدربة الامور ادَّى للحكومة الاسبانيَّة خدماً جليلة حملت ملك اراغونية الفونس الخامس المعروف بالشجاع الى ان يجازيَهُ فولَّاهُ مدينة پترا لونغا (Pietra Lunga) سنة ١٤٣٢ ثمَّ منحهُ القاب الشرف في ١٥ اذار ١٤٤٣. وخلفهُ في هذه الالقاب من

بعدهِ اولادهُ وحَفَدَتهُ منهم نيكولو الثاني وفيليب (سنة ١٤٩٨) وبترو نائب السردار (سنة ١٥٠٢) وجوليانو (سنة ١٥١٠) ونيكولو الثاني (١٥٣١) ودياغو (١٥٣٦) وقد تقلّدوا كلّهم المناصب العالية والرُتب الشريفة كرئاسة الاساطيل وقيادة الجيوش. وكانوا يسكنون اولاً في قلعة الجزيرة ثمَّ انتقلوا الى المدينة المعروفة بالقديمة (Citta vecchia) او مدينة الاشراف (Citta notabile) فنما عددهم وزاد قدرهم واشتهر منهم قومٌ بالادب والشعر والعلوم الرياضيَّة والطب

وفي تلك الاثناء عهد كارلوس الخامس الى فرسان رودس امر جزيرة مالطة وجعلها لهم ملكاً مستقلاً بشروط اشترطها عليهم. فاحتلُّوها سنة ١٥٧٠ تحت قيادة ڤيليار الشهير (Villiers de l'Ile-Adam) ولم يلبث الفرسان ان عرفوا ما لأسرة آل ابيلا من الفضل فكان بينهم وبينها علاقات حسنة وربَّما انتدبوا اعضاءها الى الامور التي تدلُّ على ثقتهم بها واعتبارهم لها. وقد ذكر المؤرخون رقيمين احدهما تاريخهُ ١٠ ت٢ سنة ١٥٣٤ والآخر سنة ١٥٧٣ يشهدان على شكر فرسان مالطة وزعمائهم لآل ابيلا على ما ادَّوهُ من الخدَم للجزيرة ويثبتان لهم القابهم الشرفيَّة

وفي اواسط القرن السادس عشر هاجر قسمٌ من آل ابيلا من مالطة الى صقلّية وصار لهم فيها نفوذ وتقلّدوا الاعمال العظيمة واقترنوا بالزواج بأسر شريفة كأسرة البارون دالّ كاموليو واسرة امراء ألاغونة. وكانوا يسكنون سيراقوسة وتّوميني مع ما خلّفوا في مالطة من الاملاك الواسعة

وممَّن اشتهروا في اواخر هذا القرن الدون ليونردو دي ابيلا بن فيليبو من سكَّان ترميني. فدرس هذا في رومية وتقلَّب في الدواوين الكنسيَّة والدرجات الرفيعة. وفي تلك الاثناء كان الكرسيّ الرسولي وجَّه الى طائفة الاقباط الاب حنَّا اليانو اليسوعيّ ليرشدهم الى الايمان الكاثوليكيّ. ثم بلغهُ انَّ بطرك اليعاقبة داود يطلب الانضمام الى الكنيسة الرومانيَّة. فاختار البابا غريغوريوس الثالث عشر ليونردو دي ابيلا وسامهُ اسقفاً على صيداء شرفاً وارسلهُ الى البطريرك داود والى بطاركة الارمن والكلدان والروم وآزرهُ بثلاثة من الرهبان اليسوعيين احدهم الاب ليونرد ستنانجلو بصفة مستشار ولاهوتيّ والثاني الاب اغناطيوس دي لاكازا وكان يعرف العربيَّة. امَّا الثالث فكان اخاً مساعداً. وكان سفرهم في آذار من سنة ١٥٨٣ ثم ابحروا

من البندقيَّة الى الاسكندريَّة فسوريَّة وطافوا بلادًا كثيرة وتحقَّقوا خُبث اليعاقبة ومكرهم واجتمعوا ببطريرك الموارنة في قنوبين فلقوا عندهُ كلَّ اكرام وحفاوة. وقابلوا وكيل بطريرك الكلدان فجحد اضاليلهُ بين يدي سفير البابا وكذلك ساروا الى سيس لمواجهة بطريرك الارمن ثم الى دمشق واورشليم لمفاوضة بطريركيها الملكيَّين في امر الاتحاد ثمَّ عادوا الى امّ المدائن بعد سنتين. وقد كتب ليونرد دي ابيلا اخبار رحلتهِ باللغة الايطاليَّة وقدَّمها للبابا سكستوس الخامس فنُشرت مرارًا بالطبع ونُقلت الى الافرنسيَّة

وقد تفرَّع من أُسرة ابيلا فروع ذكرها المؤرخ شينطار اشتهر بينها البارون بينيو في سيراقوسة والبارون شزافيرانا وغيرهما لا يسع المقام ذكرهم فردًا فردًا

وكان لاسرة ابيلا شعار (آرمة) اختصت بهِ وهو على صورتين الاولى تمثّل هابيل ساجدًا امام المحرقة التي قدَّمها للربّ اشارة الى آل ابيلا كأنَّهم اشتقُّوا اسمهم من هابيل. والصورة الأُخرى وهي المتداولة في العائلة المذكورة ترى مثالها في هذه المجلَّة وهي عبارة عن حنيَّة ذات ثلاثة نجوم مذهَّبة في ميدان ازرق يحملها النسر الملكيّ

٢

هذا ما تمكَّنَّا من جمعهِ باختصار عن اصل أُسرة ابيلا واخبارها السابقة. اما الفرع المقيم الآن في صيداء فقد اتاها واردًا اليها من مالطة ولذلك عُرفوا ببيت المالطي. واوَّل من تقدم منهم سواحل الشام كان اسمهُ جاكومو اي يعقوب ورد اليها مع ابنهِ توماس ليتعاطيا التجارة وذلك في القسم الآخر من القرن الثامن عشر. واحتلَّا في بادئ الامر مدينة عكَّا على عهد الشيخ ظاهر العمر فتولَّيا اعمال التجارة بين عكَّا ومالطة وجهات اوربَّة فنجحت امورهما نجاحًا عظيمًا وبلغا ثروةً طائلة استلفتت اليهما الانظار

ثم صارت ولاية عكَّا الى احمد باشا الجزَّار فاحتاج الى مساعدة جاكومو وولدهِ فطلب منهما مالًا لتيسير امورهِ فاعداهُ واستمالاهُ بذلك واستوطنا عكَّا واتَّخذا فيها الاملاك الواسعة وانشأا فيها العمارات التي لا تزال تُعرف حتى اليوم باسمهما

ولمَّا توفّي جاكومو خلفهُ في اشغالهِ التجاريَّة ابنهُ توماس ولم تطل مدَّتهُ واورث مالهُ ابنهُ الياس. وكان الياس مبتلًى بمرض في عينيهِ لم يمكنهُ ان يزيد على ثروة ابيهِ فعاش من تركتهِ واولد ثلاثة بنين وهم فرنسيس وتوما ويوسف

فرنسيس اعقب ولدهُ الياس الذي سافر الى مصر وخدم في دوائر المرحوم محمَّد

علي باشا وكان ذكيًا شجاعًا مقدامًا فأُسندت اليهِ نظارة معامل غزل القطن فقام بمهمتهِ احسن قيام واخترع لترويج العمل محسّنات كثيرة وكانت وفاتهُ بلا عقب بالهواء الاصفر سنة ١٨٣١

وخلّف توما بن الياس ولدًا اسمهُ حبيب درس العلوم الرياضيَّة ثم سافر الى الهند والصين للتجارة ثم عاد الى وطنهِ ورحل الى بلاد السودان وافاد مالًا كثيرًا وكانت وفاتهُ في الخرطوم سنة ١٨٦٦ عن ثروة عظيمة

امّا يوسف بن الياس فانهُ تعلَّم الطبّ والجراحة وبرع بهما وانتظم في سالك جيش نابوليون الاوَّل لمَّا قدم لمحاصرة عكّا في اوائل القرن الماضي فبلغ الامر احمد باشا الجزَّار فحنق عليهِ وعلى اخوتهِ وضبط املاكهم فهرب آل ايلا من وجههِ واستتروا. وكذلك يوسف فانهُ لمَّا رجع نابوليون الى بلادهِ فرَّ هاربًا الى لبنان وتوارى الى وفاة احمد باشا الجزَّار سنة ١٨٠٤ فجاء صور وتأهل هناك بالسيدة وردة ابنة الياس الحمصي ثم تحوَّل الى صيداء وتوطَّنها وزاول فيها التجارة والطبّ معًا. وبرع في الطبّ فاحرز لهُ بمعالجاتهِ شهرةً كبيرة

ولمَّا ارادت الدولة الانكليزيَّة ان تختار لها ممثلًا في صيداء ألقت اختيارها على يوسف المذكور لوكالة القنصليَّة فتولَّى اعمالها بنشاط حتى اثنت عليهِ دولتهُ مرارًا وابدت لهُ من المجاملة والالتفات جانبًا عظيمًا. وكان مع ذلك ليّن العريكة سهل الطباع مرتبطًا مع الجميع بوثاق المودَّة لا سيَّما مع اشراف لبنان وبيوتاتهِ كالشهابيين والمعنيين والصعبيين والحرفوشيين وبني علي صغير وبني منكر. وممَّا يُذكر لهُ فيشكر ما قدَّمهُ لاهل لبنان من المساعدات المهمَّة في سنة ١٨٤١ فاستوجب ثناء جميع الاهلين. وكانت وفاتهُ في اواسط تشرين الاوَّل سنة ١٨٤٤ وقد اثنى عليهِ الكولونيل روز قنصل الدولة الانكليزيَّة العام بكتاب تعزية وجَّههُ الى اخوتهِ واولادهِ

وبارك الله نسل يوسف فخلّف اولادًا كثيرين فضلاء بقي منهم عشرة احياء من بعد وفاتهِ وهم: يعقوب ونيقولا ونخلة وحبيب وجبران ورفول وايوب وجرجس وشبلي ومريم. وقد تعاطى هؤلاء اعمالًا شتَّى كخدمة الدول في المناصب القنصليَّة واعمال التجارة ومهنة الطبّ واتَّسعت اشغالهم وامتلكوا الاملاك الواسعة في صيداء وبيروت

ولبنان ومما اشتهروا بهِ اتفاقهم العجيب ومحبة بعضهم لبعض حتّى لم يسمع قطّ انهُ وقع بينهم خلاف

ولمَّا كان المقام لا يسمح بذكر تفاصيل اخبارهم نكتفي بالبرض عن العدّ والقليل عن الكثير فنقول:

خلف يعقوب البكر اباهُ في اعمال القنصليَّة الانكليزيَّة فتولَّاها من سنة ١٨٤٤ الى ١٨٧٢ وقد أُثبت في مرتبتهِ هذه بموجب فرمان شاهاني نالهُ من مكارم السلطان عبد المجيد خان سنة ١٢٦٨هـ (١٨٥١) وهو يُلقَّب في الفرمان المذكور باسم «الامير» ويُدعى «قدوة امراء الملَّة المسيحيَّة». وقد اظهر في هذه المدَّة الطويلة اقتدارًا عظيمًا على التدبير وهمَّة نادرة في خير الاوطان حتى انَّ الحضرة السلطانيَّة تكرَّمت عليهِ بالنشان المجيدي. ولهُ من المساعي المبرورة لدى المسيحيين اجمالًا واللبنانيين خصوصًا ما تشهد لهُ عدَّة كتابات تاريخها ١٨٤٥ و١٨٦٠ وقعة بامضاء عدد وافر من الكهنة والعالمين. وكذلك اطَّلعنا على فصول مطوَّلة نشرتها الجرائد الاوربيَّة مثنية على شهامة قنصل صيداء وتفانيهِ في سبيل المنكوبين. ولدينا رقيم من القاصد الرسوليّ السيد يوسف ڤالركا تاريخهُ ٢٥ تموز ١٨٦٠ يطري فيهِ آل ايلا وعظيم همَّتهم. ولم يلبث البطريرك الموما اليهِ ان نال لكلّ من الاخوة من قداسة الحبر الاعظم بيوس التاسع وسام غريغوريوس الكبير (١). ولم تنسَ الدولة الانكليزيَّة عن مكافأتهِ فانَّها عرفت لمثلها حسن خدمهِ فانعمت عليهِ بشمعدان من فضَّة وزنهُ ٥٢٥٠ غرامًا وعلوهُ ٧٥ سنتيمترًا في اسفلهِ كتابة تشهد على فضلهِ. وفي مدَّة قنصليَّة يعقوب زار سوريَّة البرنس دي غال ادوار ابن الملكة ڤكتوريا ووليّ عهدها الذي يملك اليوم على بريطانية العظمى فمرَّ بصيداء في ٩ أيار من سنة ١٨٦٢ راكبًا يختهُ الملكيّ فاستقبلهُ المرحوم يعقوب ايلا بما يليق بجلالتهِ من الاكرام فنزل البرنس الى البرّ وتلطَّف بزيارة الدار القنصليَّة وسُرَّ بما لقي فيها من الحفاوة وشارات الاجلال. وكانت الدار مزيَّنة مفروشة بجلود النمورة والضباع وبقي هناك الى المساء فقفل راجعًا الى يختهِ وارسل صورتهُ كتذكار زيارتهِ الى المرحوم يعقوب ايلا وحرَّر عليهِ اسمهُ الشريف. وهي صورة

(١) وقد كتب حضرة الاب روسُّو المرسل اليسوعي في صيداء مقالة افاض فيها في ذكر آل ايلا وارسلها الى البطريرك يوسف ڤالرغا فاجابهُ مثنيًا على المذكورين وامرهُ بتبليغهم بركتهُ الرسوليَّة

كبيرة ترى حتى اليوم في الصاعة نفسها التي احتلها كضيف كريم . واعقب المرحوم يعقوب ابيلا عدّة اولاد افاضل لا يزالون في قيد الحياة ومنهم يوسف الوارد ذكرهُ ووليم وميشل

وقد خلفَ يعقوب في قنصلية الدولة الانكليزية اخوهُ حبيب بمقتضى فرمان شريف من الحضرة السلطانة تاريخهُ سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣) ودُعي به اميرًا وكان قبل ذلك تولّى وكالة قنصليّة دولة اسبانيــة ونال جزاء خدمه وسام الملكة ايزابلا الكاثوليكيّة مع لقب « دون » الشرفي . وكانت الدولة الانكليزية واثقة ايضًا بفضله عرفت ما لهُ من الاقدام والنشاط في سنتي ١٨٤٠ و ١٨٦٠ . وخدم بصفة ترجمان قنصل دولة انكلترة العام في سوريّة الكولونل روز وذهب في خدمة هذه الدولة مرتين الى جهات فلسطين فارسلت اليه الحكومة هديتين ثمينتين وقلّدتهُ نيابة قنصليّة دولتها بعد وفاة اخيه فزادت همّتهُ في خدمتها ونال رضاها لكنّهُ تنزّل لابن اخيه الدكتور البارع يوسف ابيلا عن وكالة دولة اسبانية

وكان حبيب رجلًا كريم الاخلاق فصيح اللسان ثاقب الفهم محنّكًا في الامور وكان يتقن عدّة لغات كالافرنسيّة والايطاليّة والانكليزيّة فضلًا عن العربيّة والتركيّة . وكان رحب الجنان ثبت الفؤاد قيل انهُ لمّا زار القدس في سنة ١٨٧٢ بمعيّة إلدوج قنصل الدولة البريطانيّة دُعي كلاهما الى حفلة عرس جرت فيها ألعاب وأُطلقت البنادق فاصابتهُ رصاصة في وجنته واخترقت حلقهُ وخرجت من تحت اذنه من الجهة الأُخرى ففهمَ الناس بان يمسكوا الفاعل فيجازوهُ عن فعله الّا ان المرحوم اشار اليهم بألّا يفعلوا ثم اخذ قشّةً من الارض وغطّها في دمه الجاري وكتب على ورقة انهُ بَلء رضاهُ يُسقط حقوقهُ عن الجاني ويصفح عن ذنبه ولا يريد ان احدًا يتعرّض لهُ . وممّا امتاز به حبيب ابيلا تمسّكهُ بالدين الكاثوليكيّ اضحى بذلك قدوةً لاهل وطنه وكان يثابر على الاسرار المقدّسة لاسيّما في آخر حياته . وقد شيّد في قرية جباع محلّ مصيفه كنيسة اوقف عليها بعض الاملاك للقيام بنفقاتها . ومات ميتةً صالحة في سنة ١٨٨٣ . وخلّف ١٣ ولدًا منهم خمسة صبيان تولّى كبيرهم المسيو انيبال قنصليّة الدولة الانكليزيّة بعد المرحوم شبلي . ثم جان ورفقي وانجو وعزيز الذي انتظم في سلك الرهبانيّة اليسوعية

وقد تعاطى نيقولا ونخلة وجبران الطبّ والتجارة معًا . وامتاز الاول بسيرته الحسنة

واستقامته في المعاملات ومات بلا عقب سنة ١٨٦٨. وصرف الثاني قسماً من حياته في بيروت وجدَّ في اعمال الزراعة ولهُ ابنة جميلة الهندسة انشأها واحسن تدبيرها وولد قيصر وكسرى والياس. اما جبران فتولى نيابة قنصلية دولة البرتغال في صيداء. وكان ايضاً يُعنى باعمال الزراعة والتجارة وادَّى للدولة الانكليزية خدماً معدودة فشكرتهُ عليها بهديّة فاخرة وابنهُ شكري وارثٌ لاعماله وفضله

وكان أيوب متخرجاً بالآداب الاجنبيَّة متقناً لبعض اللغات ولهُ فصول كتبها في المجلَّات الاوربيَّة عن احوال الشرقيين وعاداتهم. وتعاطى التجارة في بيروت والاسكندريَّة وفي سنة ١٨٦١ قُلّد نظارة قنصليَّة المانية في صيداء. فخدم هذه الدولة ٣٦ سنةً ونال منها وسام تاج بروسيا الملكي. ووُلي مرَّتين وكالة قنصليَّة اميركا في بيروت. وتوفي سنة ١٨٩٧ وخلَّف اولاداً منهم هنري ونجيب

ودرس شبلي العلوم الرياضيَّة في الكليَّة الاميركانيَّة واخذ الطبَّ عن الدكتور ڤان ديك وتعاطاهُ في دمشق ثم في صيداء. وألَّف كتاباً في الحيَّات رفعهُ الى المدرسة الكليَّة في نيويورك فنال منها شهادة الدكتوريَّة. وكان ايضاً يزاول التجارة والزراعة ووُلي نيابة القنصليَّة لدولة اميركا. ثمَّ صارت اليه قنصليَّة دولة انكلترة بعد وفاة اخيه حبيب فادار امورها الى سنة وفاته في ١٧ تموز ١٩٠١ واولادهُ الذكور فريد وجاكي وسميح ووديع وبترو. يخدم منهم الدكتور جاكي والمسيو بترو دولة انكلترة الاول بصفة قنصل في طرابلس والثاني بصفة كنشليار في حيفا

وقد اشتهر في الكتابة والشعر العربيّ المرحومان رفول وجرجس ابيلا. وكانا كفيفين فلم يمنعهما داؤُهما من ان يتفرَّغا للعلوم الرياضيَّة ودرس العربيَّة بفروعها حتى قيل عنهما انهما حكيا المعرّي في ادبهما كما حكياهُ في مصاب فقد بصرهما. وتوفي رفول عن ثلاثة اولاد منهم صيَّان فيليب وانطون. ولهُ قصائد عديدة اخذت اكثرَها يدُ الضياع من ذلك قولهُ يمدح الخواجا جرجس اديب:

يا نسيم الصبح خذ عنّي السلامْ ... نحو قوم هيَّجوا فيَّ هيامْ
ذبتُ وجداً في هواهم وجوًى ... ليتَ يحظى باللقاء المستهامْ
غلبوا في حسنهم ليلى كما ... بتُّ كالمجنون فيهم من غرامْ
وصبا قلبي فصبَّت ادمعي ... فاضتْ نيل مصر بانسجامْ
حيث لي فيها امام فاضلٌ ... حاز في رتبتهِ اعلى مقامْ

وسما في جدّ رأي صائبٍ ساد فيهِ وعلا كل الانامْ
شرُف الآداب اذ فيها سمى وكذا من جوده نال الكرامْ
لو اعاد الشمس ضوءا رأيهُ لن يَكُنْ كسفٌ ولم يلقَ ظلامْ

وهي طويلة لم يسلم منها غير ما ذُكر . ولهُ ايضاً :

يا سُهيل ارعَ ذمامي فانا لك راعٍ وكلانا لم يَنمْ
عُجْ على غير قياسٍ سارياً من جنوبِ الغرب مع نَسمِ النَّسمْ
وخُذ الشرق الشمالي قبلةً واتلُ في بيروتَ آياتِ السَّلَمْ
أخبرِ الاحباب عنّي انني بعد بعدي عنهم ذقت الندمْ
طيفهم ان بعدوا عن مقلتي لم يفارقها دواماً وهيَ لمْ
هدَّ حيلي الشوقُ لكن املي باللقا لطَّفَ عن جسمي الضَّرمْ
فعسى احظى برؤياهم وبي رمقٌ كي اشتفي من ذا الالمْ
وعلى الله اتكالي فالذي يُخلص الآمال فيهِ لم يُضَمْ

وكان رفول يتعاطى كاخوتهِ اعمال التجارة والزراعة . وكان يأتيهِ ادباء الشبَّان فيدرسون عليهِ . وممَّن اخذ عنهُ عزتلو نقولا بك توما المحامي الشهير والقانوني البارع . وقد قال يودّع معلّمهُ ويشكرهُ لمَّا رحل الى مصر

الفراق

جار الفراقُ على ضعفي وما عدلا والصبرُ ولّى ورغد العيش قد رحلَا
والوجدُ قد اوقدَ الاحشاء يسعرها بنارِ ضيمٍ حكَت نارَ الغضا وجلَا
والذلُّ قد لذَّ لي وانحطَّ في جسدي سينٌ وقافٌ وميمٌ والهنا بطلَا
قالوا ألا ايها الصبُّ القتيلُ نوًى مهلًا كفاكَ عذابٌ في الفؤادِ حلَا
واكفف دموعك لا تذرف وكُن رجلًا وارفق بذاتك لا تنفعل وكُن بطلَا
وارشف لما الرشدِ واسلُ الهمَّ مهتدياً ولا تكن حائرًا سكران منذهلَا
فقلتُ وا اسفي كيف السلوُّ وقد أوهى الهوى جسدي فأتاعَ واشتملَا
أيرتجى الصبر انَّ القلبَ منسلبٌ فكيفَ صبرٌ بلا قلبٍ يُرى وَأَلا
قلبي غنيمةُ مجدي سيدي سندي ربّ الحجى رفعتي السامي الجلال مُعلي
تاجي ملاذي ابتهاجي مَن بهِ افتخرت اوجُ المعاليَ علماً فطنةً عملَا
بدرٌ بهِ يهتدي للحقِ بدرُ هُدًى مولًى بهِ مجمعُ الآداب قد شملَا
هو الاديبُ الاريبُ الفاضلُ الفاطنُ آلـ ـسامي الذي قدرهُ بالرفع قد رفلَا

العالمُ البارعُ الميمونُ طالعهُ   والناظمُ الناثرُ الباهي الذي فضلا
ان قال شعرًا يخرُّ الدهرُ متّضعًا   لهُ وان قال رأيًا يذهلُ العُقَلا
شهمٌ ببهجتهِ الايامُ قد رقصت   والسعدُ فيهِ بدا والعزُّ قد نزلا
يا ايها المُحكَمُ المبدي لنا دُرَرًا   ومن سما بصنيع الخير واشتملا
انت الذي افتخرت فيهِ الملا أدبًا   انت الذي للتقى قد مهّدَ السُّبُلَا
مني اليكَ سلامٌ فاخرٌ عطرٌ   ارجو اللقاء ولا اخشى لهُ مطَلَا

امّا جرجس فكان متوقد الذهن حسن الرويّة جيّد الذاكرة وقد توفي في السن السابعة عشرة قبل ان يجني اثمار علمهِ واجتهادهِ. وشعرهُ رقيق مطبوع عثرنا منهُ على ما يلي. فمن ذلك قولهُ في مدح ابراهيم بك كرامة ابن الشاعر الشهير بطرس كرامة:

هزارُ الانس غنّى منتهيا   على دوح التهاني منتقيا
واضحت دارنا وبها ابتهاجٌ   عسى يبقى لدينا مستديما
وامسى القلب منا في مناهُ   ومن سقمِ الفراق غدا سقيما
وقلت لهُ لقد نلتَ الاماني   وموسى الشوق كنتَ بهِ كليما
لاجل كرامة يا قلب طبنا   نفوسًا والسرور بنا أقيما
بابراهيم من بلواي أبرا   وأعذَر من نواه بأن احيما
فيا من قربهُ اضحى نعيمًا   وكان بعاده عنّا جحيما
لقد احييتَ فضل ابيك حتّى   بفضلك فقت والدك الحكيما
ابوك لقد بنى لك بيت مجدٍ   وزدتَ بمجدك المجد القديما
فلا زالت شموسك مشرقاتٍ   على الدنيا ولا زلت الكريما
ولا برحتْ عُلاك على كمالٍ   ويبقى الحظّ عندك مستقيما

واجاب على كتاب كان المذكور عاتبهُ بهِ فقال:

ألا حبّذا عتبٌ بدا من معاتبٍ   لقد صرت فيهِ كالاسير المكاتبِ
اذا ما اتتني من حبيب رسالةٌ   اراهُ بها مثل القريب المخاطبِ
فطرفي بما يجني من الخطّ حظّهُ   وتُتلى فيحظى السمعُ منها بجانبِ
وتحضر في قلبي خواطر لذّة   اذا كان فيهِ ساكنًا شخص صاحبي
وكم ساكن في مهجة وهو ساكت   وقد فات من يهواه فضل المجاوبِ

ومنها في المدح:

كرامة ابرهيم فاقبل قصيدتي   ولا فضل لي اني اتيتُ بواجبِ
اديبٌ اريبٌ المعيٌّ مهذّبٌ   لهُ الفضل ارثٌ عن ابٍ ذي مناقبِ
ومَن لي بان يرضى باني اخصّهُ   بديوان شعرٍ مُترَع بالعجائبِ

وما ذاك الّا انّ فيهِ شمائلًا تحضُّ على تخصيصه بالاطايبِ
وان ودادي يا كرامة زائد عن ودّك السامي لاعلى المراتبِ
كفاك من العلياء ما انت حائز بهِ فائزًا منها باسنى المناقبِ
فصلني ولو بالخطّ فالخطب هيّنٌ وان كنت نُصب العين في وصف غائبِ
وما بك بُخل يا كرامة انما ليكمل حظي من جميع الجوانبِ

ولهُ من قصيدة يمدح بها الشيخ الاديب يوسف افندي الاسير:

فيوسف يُدعى بالاسير لانهُ يسير اليهِ العلم في غاية الامرِ
فهيمٌ كريمٌ فاضلٌ متأدبٌ قد استوجب المدح الجزيل مع الشكرِ
قد استوجب العزّ الرفيع مع الثنا لكثرة ما فيهِ من انشيم النزرِ
قد استوجب الفخر المنيع مع العلى وحمدًا جميلًا فائق الحد والحصرِ
ألا ايها البحر العرمرم انني لراجيك عفوًا عن قصوري وعن شعرِي
وان قبول العذر احسنُ خلّةٍ يُزان بها اصل الفتى فاقبلنَ عذري

وقال في مديح السيد عبد الله الجابريّ لما قدم من حلب الى الشام:

رأينا ذوي فضلٍ ومثلك لن نرى فان جميع الصيد في باطن الفرا
لقد اشرقت في الشرق شمسك وانجلى ظلام الدياجي حيث صبحك اسفرا
واذ جئت برّ الشام اينع روضهُ واثمر فيهِ الفضل والعدل ازهرا
وحلّت ببيروت المسرّة كلها وفي ثغرها حلّ ابتسام بلا مرا
اسرتَ العلى حيث المعاني رقيقة تهيم ولكن غير وصالك لا ترى
فلا برحت تحظى بهِ حيث انها لها في هواك العذر من سائر الورا
دُعيتَ بعبد الله انك سيدٌ وبالجابريّ الالمعيّ لتجبرا
واصبح ذو فضلٍ بحبك هائمًا واضحى بك الشاني الظلوم مكدرا
حويتَ التقى والجد والمجد والهدى عن الجد حتى طبتَ فرعًا وعنصرا
لكفّك جودٌ لا يُقاس بهِ ندى محال علينا ان نعدّ ونحصرا
فحاتمٌ الطائي روى عنك جودهُ واحنف عن حلم يزينك قصّرا
قدامةُ يروي عنكَ كلّ بلاغةٍ وقسٌّ روى عنك الفصاحة مُخبرا
وانّك للعلياء اجدر طالبٍ وانت لدى الاقمار في ارفع الذرى
وانّك بحرٌ لا يُخاض قرارهُ بلا حرج عنهُ يحدّث مَن درى
واخلاقك الحسنى خُلقن من الرضى ورأيك اضحى من ضيا الشمس اظهرا
تتيه القوافي في مديحك عزّةً ويسمو بكم نظم القريض مصدّرا
فلا زلت ترقى اكمل السعد كلّما صباحٌ بدا او صاح طيرٌ وبكّرا

وقد كاتب الشاعر العصريّ الطيّب الذكر الشيخ ناصيف اليازجي ومدحهُ بقصيدةٍ مطلعها :

بحور الهوى قد اغرقت كلَّ سابحٍ   وقصَّر في ميدانهِ كلّ راجحِ

فاجابهُ الشيخ ناصيف عليها بقصيدةٍ من بحرها ورويّها منها قولهُ في مدح جرجس ايلا :

هويتُ الذي اعطى العلومَ فؤادهُ   فأعطتْهُ منها سانحًا بعد بارحِ
تيمَّنتُ باسم الحضر فيهِ وطالما   ترى المرء لا يخلو اسمُهُ من لوائحِ
وجدتُ بهِ بل منهُ متعةَ سامعٍ   ويا حبَّذا لو نلتُ رؤيةَ لامحِ
به حدثت عيناي اُذني وربَّما   تُخصَّص بالاقبال بعض الجوارحِ

فهذه نبذة وجيزة من اعمال أُسرة ايلا الفاضلة نتمنَّى للخلف من ابنائها ان يسيروا على ادراج اسلافهم لا سيَّما في استمساكهم بعرى الدين فيزيدوا على فضلهم فضلًا ويكونوا لوطنهم فخرًا

بعض اديار مصر القديمة

لحضرة الاب ميخائيل جوليان اليسوعي (تتمَّة)

٥ دير الفاخوري

بين الرمال التي تمتدُّ في سفح سلسلة الجبال الليبيَّة على بعد ٢٠ كيلومترًا شمالي شرقيّ اسنا ديرٌ قديم لا يسكنهُ ديَّار تدلُّ آثارهُ الباقية على اتساعهِ وماضي عظمتهِ مع انَّ الكتب العديدة التي نُشرت في القرن المنصرم عن بقايا مصر لم تتعرَّض لذكرهِ . امَّا الاقباط الذين يسكنون وادي النيل من الاقصر الى اسوان فهم يعظّمونهُ ويحجّون اليهِ زرافاتٍ يوم عيد الراهب القديس الذي شرَّفهُ بفضائلهِ وكراماتهِ اعني القديس متى الفاخوري . وهم يزعمون انَّ احد ملوك الحبش ابتنى هذا الدير شكرًا لله على شفاء ابنتهِ المدنفة على الموت بشفاعة متى المذكور

ودونك ما ورد عن هذا القديس في السنكسار القبطي الذي نقلهُ الى الالمانيَّة

المستشرق وِستنفلد (ص ١٥٨) في اليوم السابع من شهر كيهك قال: « وفي هذا اليوم انتقل الى دار الخلد الفقير القديس متى وكان رئيساً على دير في جبل اسنا ممتازاً باعمال البرّ والصلاح وكان يطرد الشياطين ويشفي كلّ المرضى الذين يدعو لاجلهم باسم الربّ. ومن معجزاته ان قوماً اتوهُ بامرأة لم يُعرف لدائها دواء. فاوحى اليه الروح القدس بانّ مرضها عقاب لخطيئة اجترحتها وهي أنَّها اقترنت باخوين تتالياً فاضطُرّت الى ان تبرأ بإثمها علناً فتلا القديس عليها صلاةً وما كاد ينتهي من دُعائه حتى خُسفت بها الارض وصارت عبرةً للحضور. . . وكانت سباع البرّ وضواري الوحوش تأتي القديس فتقتات من يده. . . ولمّا وافاه الاجل انتقل بسلام الى مقرّ الابرار »

وقد ذكر الشيخ ابو صالح الارمني (١ متى الراهب وهو يدعوهُ متيوس العابد ويروى عنهُ انهُ صار اسقفاً على اسنا وانهُ لمّا قدم البلد خرج الناس بين نصارى ومسلمين لاستقباله. وفي معرض كلامه يذكر ائتلاف الاهالين في ناحية اسنا مع اختلاف الاديان فقال ما حرفهُ: « وفي اعراس المسلمين وافراحهم يحضروا النصارى ويقرأوا قبطياً صعيدي ويمشوا قدام العريس في اسواقها وشوارعها وصار هذا عندهم عادة مستقرّة الى عصرنا نحن. وفي ليلة عيد الميلاد المقدَّس من كل سنة يوقدوا المسلمين والنصارى شموع ومصابيح واحطاب بجملة كبيرة » انتهى

(قلتُ) وهذا كل ما امكنني جمعهُ عن ترجمة الراهب متى الفاخوري وديره الذي قصدتُ زيارتهُ لاصف آثارهُ

وكان دليلي الى هذا الدير رجلين من ذوي الأُنس واللطف احدهما من تلامذتي الأقدمين وهو اليوم ناظر البريد في اسنا. والآخر كاهن قبطيّ اورثذكسيّ يتولّى ابوهُ (وهو كاهن مثلهُ) امر هذا الدير وبيده مفاتيحهُ

ولمّا قطعنا مسافة ثلاثة ارباع الساعة من اسنا عثرنا فوق قُلّة جرداء على صفائح من الحجارة مكتوبة بالخطّ الهيروغليفيّ وعندها اساس حيطان ضخمة وهي اطلال هيكل قديم كان مشيَّداً للاله خنوم. وقد وُجد ثمّت بعض الآثار قيل انَّ من جملتها رسم منطقة البروج وفي الكتابات اسماء القياصرة وبعض الشعوب الشرقيين كالفرس

١) راجع الصفحة ١٢٩ من تاريخهِ (طبعة اكسفرد)

والمقدونيين وغيرهم . واهل هذه الناحية يدعون هذا المكان باسم دير الحجر اشارةً الى انَّ هذا الهيكل جُعل ديرًا على عهد النصارى

وكانت طريقنا في ارياف على حدود صحراء مجدبة يغطيها الرمل . ولم تزل سائرين حتى لاح لنا الدير في وسط الرمال على مسافة كيلومتر من الارض المزدرعة وهو عبارة عن ابنية عظيمة تجاورها قبورٌ نصرانيَّة بيضاء كالثلج لطيفة المنظر

ولا يختلف دير الفاخوري في هيئته عن بقيَّة الاديار القبطيَّة المبنيَّة في صحاري مصر فلهُ مثلها سورٌ رحبٌ مرصوص البنيان منيعٌ يكتنف معاهد الدير وبرجًا مربعًا واسعًا يتحصَّن بهِ الرهبان عند الحاجة ويشرف على كل الدير وملحقاتهِ . وممَّا بقي منهُ الى عهدنا يُستدَلُّ على انهُ كان من اعظم اديار مصر القديمة . ولا نشكُّ بانَّ رياضًا فسيحة كانت تحدق باسوارهِ فلم يبقَ منها اثر . واليوم ترى الفلاَّحين يقصدون جوار الدير ليستخرجوا من تحت رملهِ تربةً يدعونها بالسباخ غنيَّة بملح النطرون والسماد النباتيّ ينقلونها على جمالهم ويصلحون بها مزارعهم

وابنية هذا الدير كلُّها بالآجرّ او بنحيت الحجارة وهندستها احكم من سائر الاديار واتقن صنعًا . وترى آجرّ الحيطان جُعل سافاتٍ على صفَّين صفٌّ منها قائم كما في العقود والقباب وصفٌّ مسطَّح بالتتابع . والابواب على الغالب مبنيَّة بنحيت الحجارة الجميلة تزيّنها الافاريز والطنوف او نقوش من الآجرّ المختلف الالوان نخصُّ بالذكر بينها باب المشى الاوسط الذي يُدخل منهُ الى حُجَر النوم . وهذه الحُجَر كما سبق القول تشمل من ستّ الى ثماني دكَك من الحجارة لاصقة بالحيطان كان الرهبان يتَّخذونها كاسرَّةٍ ينامون فوقها . امَّا البرج فهو ذو ثلاث طبقات كلُّها مقبَّبة وثيقة العقد يُصعد اليها بدرجٍ صبر على آفات الزمان

وكذلك الكنيسة فانَّ الدهر لم يُجنِ عليها كسائر ابنية الدير وهي تمتاز بزخرفة بنائها وجمال نقوشها . ويُستدَلُّ على انها سبقت الفتح الاسلاميّ بهندستها الشبيهة بالكنائس اللاتينيَّة . فانَّ سوقها الوسطى تعلوها قبَّة واسعة قائمة على اربع دعائم متينة وامام السوق رواقٌ وعلى جانبيهِ سوقان أُخريان صغيرتان . ومن جهة الشرق يلحق بقوس القبَّة خورس الهيكل يُرى من جهتيهِ مصلَّيان على شكل جناحي الصليب . وبازائهِ القدس على طرز حنيَّةٍ . وكلُّ الكنيسة مزدانة بصور القديسين منها ما يمثل اشخاصهم

بتمامها ومنها نصفيّة مدوَّرة الشكل وهذه الصور لا تخلو من الاتقان وان يكن طمس الدهر بعض محاسنها . وفي المصلّى الشمالي صورة للبتول الطاهرة يكرمها الزوّار غاية الاكرام الّا انّ سناج الشمع سوَّدها فلم يكد يترك لها اثرًا

وقد بنى الاقباط في توالي الازمنة امام المقدس حائطًا نصفيًا يفصل المقدس عن صحن الكنيسة كما هو جارٍ عندهم في كنائسهم المستحدثة . ولهذا الحائط باب ينفذ الى الهيكل . وحول الباب افريز ناتئ يبرز منهُ في جهتيهِ قرنان دقيقا الصنعة لعلّهما اشارة الى القرنين النوريَّين اللذين ظهرا على جبين موسى الكليم بعد مناجاته لهُ تعالى

وفي شمالي هذه الكنيسة بيعةٌ أُخرى غفلٌ من النقوش بُنيت على الطراز القبطي وهي عبارة عن سوق مفردة وجهتها من الشمال الى الجنوب ينفذ اليها عدّة معابد مقابلة للشرق .

وحضيض الكنيستين مفروش بالحصر وناهيك بذلك دليلًا على انّ الزوّار لا يزالون حتى يومنا يتردَّدون اليها في بعض المواسم وانّما يتوارد الحجّاج اليهما خصوصًا في السابع من شهر كيهك الواقع فيهِ عيد متى الراهب ويحيون فيها الليل بالصلاة

وفي ظاهر الدير على مسافة ربع الساعة منهُ بقايا كوخٍ حقير مبني بالآجرّ موقعهُ وسط الرمال زعم الكاهن دليلنا انّ ثمّت كان يعيش متّى العابد قبل ان يشيَّد لهُ ملك الحبش هذا الدير

وكان رجوعنا الى اسنا على ضفاف النيل ومرورنا في طريقنا على اسفنط (اسفينيس القديمة) وهي اليوم قرية كبيرة تُرى فوق قلّة دكناء تتركَّب من اطلال قلبها ارباب العاديَّات ظهرًا لبطن رغبةً في الآثار القديمة المطمورة فيها . وفوق البيوت صفٌ من ابراجٍ واسعة بُنيت للحمام فيخال للرائي انّ هذه البلدة قلعة حريزة . وبعد سيرٍ حثيث بلغنا آخرًا نهر النيل عند مطانا وهو اقصى ما يُرى من معامل السكّر في جنوبيّ مصر

٦ اديار شتّى

لا حاجة الى الافاضة في وصف اديرةٍ عديدة قديمة العهد زرناها في وادي النيل فوق القاهرة فانّ هذه المقامات لا تختلف كثيرا عمّا مرَّ لنا وصفهُ فنكتفي بذكر ما تفرَّد بهِ بعضها فقط

(دير الحَمّام) موقعهُ في ناحية الفيّوم على حدود الريف يبعد نحو نصف الساعة عن هرم اللاهون ذلك البناء العجيب الذي ناطح الدهر بقرنهِ فصبر على بوائقهِ منذ ألوف اعوام وهو مع ذلك مبني بسافات من السياع دون الحجر. وهذا الدير خلوٌ من الرهبان يقصدهُ الجيرة في بعض الاعياد وقد جُدّد بناؤهُ منذ بضعة قرون فشُيّد بأنقاض دير آخر اقدم عهدًا واوسع بناء تُرى في الحضيض منهُ آثار بيّنة. وهندسة الكنيسة على طراز الكنائس الروميَّة التي سبقت الفتح الاسلامي. اعني انهم جعلوا بازاء الحنيَّة الشرقيَّة حنيَّةً أخرى على شكل نصف دائرة اصغر منها وجهتها المغرب. وقد شاهدنا مثل هذه الحنايا الثانويَّة في اديار اخرى قديمة تُرى في اسفل كنائسها منها دير القديس سمعان او الانبا هدرا قريبًا من اسوان

وفي هذا الدير وجد العلاَّمة الاثري فلندرس بتري (Flinders Petrie) سنة ١٨٨٩ عددًا وافرًا من كتابات البردي يرتقي عهدها الى القرنين الثامن والتاسع للمسيح ينوط معظمها باحوال الدير الزمنيَّة وفي جملتها قطعة من رسائل الحواريين القديسين يعقوب ويهوذا كُتبت بلغة اقباط اخميم وقد نُشر كلُّ ذلك بالطبع في لندن (١

(دير الجبال السبعة) هكذا دعا العلاَّمة المقريزي ديرًا قديمًا موقعهُ في وادٍ قفر شرقيّ اخميم على مسافة ثلاث ساعات منها. والاهالي يدعونهُ شيخ شاغون. وقد ارتأى بعض الكتبة المحدثين انهُ دير نسطوريوس ولا نعلم على اي سند يدعمون قولهم. اجل انَّ نسطوريوس بعد نفيهِ في احدى واحات الصحراء الليبيَّة نُقل الى اخميم وقضى فيها اجلهُ ولكن ليس لدينا شاهد انهُ حُبس في هذا الدير او في غيرهِ

وفي مُنفرَج للوادي الذي يُفضي بالسائر الى الدير على يمينهِ صخرةٌ كبيرة تدحرجت من الجبل يستظلّ تحتها السابلة. وفي وجه هذه الصخرة الاسفل عدَّة كتابات ورسوم تشبه آثار وادي مكتَّب الشهيرة في شبه جزيرة سينا. وهي عبارة عن خطوط حفرها المسافرون برؤوس المُدى. ومعظمها باللغة اليونانيَّة تحتوي في الغالب على اسم الكاتب

(١ راجع David Nutt: *Coptic manuscripts, braught from the Fayoum,* 1893



الذي خطّها وبينها صلبان وشعار اسم المسيح مع صور عدّة حيوانات جبليّـة كالغزلان والاكباش البريّة الخ

وهذا الدير من صنف المناسك المعروفة باللورا (laure) كان الرهبان يعيشون فيها معتزلين عن بعضهم يجتمعون فقط في الكنيسة التي تُرى آثارها وبعض نقوشها في مضيق الوادي في اسفله . امّا مآوي الرهبان فكانت في صخور الجبل منقورة فيه يركب بعضها فوق البعض وهي صعبة المرتقى

وممّا حمل النسّاك على اختيار هـذا الوادي انّ في قعرهِ عيناً كانوا يستقون من مياهها . وكذلك على مسافة نحو ربع السـاعة من هذا المكان عين أُخرى لكنّها بكيّة قليلة الماء

ومن الاديار التي ذكرها المقريزي (١ : ٥٠٤) « دير القرقس » زعم انهُ على مسافة ثلث ساعات من دير السبعة الجبال شرقًا وانهُ « في اعلى جبـل قد نُقر فيهِ ولا يعلم لهُ طريق بل يُصعد اليهِ في نقور في الجبل وتحتهُ ماء عذب واشجار ريّان » . وقد بحثنا عن هذا الدير وسألنا عنهُ اهل اخميم في هذه الناحية فذهبت مساعينا ادراج الرياح

(دير مار جرجس) هو على ضفّة النيل الشرقيّة على بعـد ساعة من اخميم وفي مكانهِ اليوم قرية صغـيرة يسكنها النصارى . وكنيسة هذا الدير قديمة وهي احسن مثال لهندسة كنائس الصعيد المشيّدة بعد العهد اليونانيّ الرومانيّ اعني انّ لها سوقًا او سوقين تمتدّان من الشمال الى الجنوب وتعلوهما القبب المركبة فوق دعائم مربّعة جُعلت على مسافات متناسبة بعضها من بعض . وفي جهة الشرق سوق ثالثة كل قوس من اقواسها معبدٌ يفضي الى السوق المجاورة وذلك على عددٍ وِترٍ والمعبد الاوسط اوسع من غيرهِ واكثر زينةً ينتهي على شكل نصف دائرة مقوّسة وفيهِ الهيكل الذي تُقـام عندهُ الرتب الدينيّة . والمعابد التي على جوانبهِ واروقة الاسواق التي بازائهِ مختصّة بالنساء وتفصلها حواجز (شعريّات) من الخشب المشبّك او من الآجرّ ذي النوافذ . والباب الكبير في الغالب على جانب الهيكل او بازائهِ . ولمعابد النساء بابان خصوصيّان . امّا جرن العماد والفرن الذي يخبز فيهِ خبز الهيكل والموقد فمكانها غالبًا في المعابد المذكورة

١) راجع الخطط للمقريزي ١ : ٥٠٦

وهذه الكنائس القبطيَّة مبنيَّة بالعرض بالنسبة الى محور الحنيَّة او الهيكل بخلاف كنائسنا اللاتينيَّة التي تمتدُّ بالطول. وهي هندسة تجعل لكنائس الاقباط هيئة غريبة كأنَّها حوانيت سوقٍ جُعلت معابد للصلاة

وممَّا يطلعنا على صورة الكنائس القبطيَّة قبل ثلاثة عشر قرنًا كنيسة دير انبا بسادا او بساتيس بازاء مدينة المنشيَّة المعروفة سابقًا باسم بتولمائيس هرميو وفيها بقرب الهيكل حجرة تحوي ذخائر القديس الذي على اسمهِ بُنيت الكنيسة. وهذا القديس كان اسقفًا على المنشيَّة وعيدهُ عند الاقباط الكاثوليك في ٢٧ كيهك. وكذلك كنيسة دير انبا باخوم (بوخوميوس) شماليَّ شرقيَّ الكرنك يزعم الفلَّاحون الذين يشتغلون في املاك ذلك الدير انَّ فيها جسد القديس باخوميوس. وكذلك ايضًا كنيسة دير الشهداء او دير امونيوس على بعد ساعة من اسنا في جنوبها الشرقيّ وفي كلّ هذه الكنائس نقوش رائعة تترقَّى الى ذلك العهد وكلُّها مبنيَّة بالعرض على النمط المذكور سابقًا (تتَّت)

موسى على النيل

معرَّبة عن قصيدة شهيرة لفكتور هوغو الشاعر الفرنسوي بقلم جناب الاديب الفاضل يوسف ابي سليمان مدرّس البيان في كليَّة القديس يوسف

فنزلت ابنة فرعون الى النهر لتغتسل
وكانت جواريها سائرات على شاطئ
النهر (سفر الخروج ٢: ٥)

موشح

اللازمة

أخَواتي الماءُ قد حاكى السَّما بصفاءٍ راقَ عندَ الغَلَسِ
طلعَ الصبحُ بوجهٍ بَسِما فبدا الماءُ بثغرٍ ألعَسِ

يا لها من ساعةٍ فيها انتضى نصلُ صبحٍ شقَّ أسدالَ الدُّجى
وجلا عنَّا غيومَ المَضَضِ إذ اتانا بجبينٍ أبلجا
لم يزل حصَّادُنا في رَبَضِ ليس إنسٌ نحو ريفٍ عرَّجا
صوتُ منفٍ لم يزل منكتما ونسيمُ الصبحِ مُحيي الانفسِ

فهناءُ الرُّوحِ عندي عظُما   أخَواتي بغياضِ السُّندسِ

٢ سطعت في قصرنا زُهر الفنونْ   خطفت ابصارَنا بالعجبِ
فزهور السَّيف سحرٌ للعيونْ   وبهِ للنفس نيلُ الاربِ
وهو يُودي بافانين الشجونْ   دونهُ حوضٌ طلي بالذهبِ
بجفيف الريحِ قلبي أُغرِما   فنسيمُ الريحِ رَوْحُ النَّفَسِ
ساطعُ الاصباءِ عندي قد سما   فوقَ أطيابِ اللُّبانِ الأنفسِ

---

٣ فهذاذيكُنْ فالماءُ اَستكانْ   والسما قد كُسيت ثوبًا مُنيرْ
ذَرْنَ جلبابًا زها كالارجوانْ   ذَرْنَهُ فوقَ رياضٍ كالحريرْ
عَنّيَ اترعنَ رضيعاتِ اللِّبانْ   خُمُرًا من دونها التبرُ النضيرْ
انَّ حُبِّي طيَّ قلبي اَحتدما   من تباريحِ الظباءِ الكُنَّسِ
مَعَكُنَّ الغوصُ أضحى مَنعما   بينَ امواجٍ بنَغَمِ الجرَسِ

---

٤ فهذاذيكنَّ... لكن ما ارى   بينَ اغباشِ الصباحِ المسفرِ
هل يُرى شيءٌ بأُفقٍ اغبرا   فأجلنَ الطرفَ في ذا المُدبرِ
فتَياتي لا تخفنَ المنكرا   ليسَ نكرٌ لذوات الخفرِ
علَّهُ جذعُ نخيلٍ قدِما   يبتغينا من أقاصي اليبسِ
يطلب الاهرام فيها مُغرَما   راكبًا تيَّارَ ماءٍ سَلِسِ

---

٥ ما اقول... الامرُ فيهِ ريبةٌ   خُدِعت عيناي في ذا المشهدِ
فاذا صحَّت بعيني نظرةٌ   قلتُ قولًا لم يَدُرْ في خلَدي
هي فُلكٌ بأَرْمسٍ مقبلةٌ   صدَفٌ إيزيسُ فيهِ تهتَدِي
قاربٌ في غمرِ بَحرٍ قد طما   سَفَطٌ فيهِ تمادى حدَسي
وبهِ طفلٌ هجوعٌ انَّما   أغمَضَت عينيهِ بنتُ النَّعَس

---

٦ نائمٌ في حضنِ نهرٍ قد صفا   نومَهُ في حضنِ أمٍّ نائمٍ
مهدهُ عُشُّ حمامٍ قد طفا   فوقَ امواجٍ بهِ قد طافتِ
لَعِبَ الموجُ بهِ فاستهدفا   عرضةً للريح إمَّا ثارتِ

هزَّهُ الماء هزيزًا نعما فهوَ وَسْنانٌ أليفُ الأُنسِ
لججٌ قد هدهدتهُ انَّما مهدهُ اضحى شبيه الرَّمسِ

٧ نَبِهَ الطفلُ بفلكٍ سبحتْ يا عذارى منفَ اسرعنَ اليهْ
قد بكى . . واهًا لامٍ طرحتْ ابنها في اليمِّ لم تشفق عليهْ
حولهُ الامواج ماجت مرحتْ بَسطَ الطفلُ اليكنْ يديهْ
يا لقلبي جاءهُ الموت فما بينَ امواجٍ سطت من محرسِ
مهدهُ من قصبٍ قد نُظما وَيحَ طفلٍ بالبلى مُنغَمِسِ

٨ فلنخلّص ذا الرضيعَ الناضرا فهوَ من اولاد يعقوبَ الكرامْ
فأَبي امسى عتيًا جائرا أَيُجازَى الطهرُ بالفعل الحرامْ
يا لطفلٍ باتَ عتلي حائرا من أذاهُ وفؤادي باضطرامْ
ليتني أُنجي صبيًا اكرما وأُريهِ النور بعد الحِندِسِ
ليتني أُمسي لهُ امًا كما انني من كربهِ في سَجَسِ

٩ هكذا كانت تناجي «بثيةٌ» بنتُ فرعونٍ خواتينَ الجمالْ
وهي تمشي وتليها سُربَةٌ قد تَميَّسنَ بغنجٍ ودَلالْ
ولها بين الجواري طلعةٌ اخجلت بالحسن ربّات الحجالْ
حينما بنت الملوك القُدما خلعت عنها ثياب الاطلسِ
برزَت بدرًا يفوق الانجما وبدت تزري بزهر النرجسِ

١٠ خاضت الماء بساقيَ لازوَردْ فعلى الموج على بدرِ الزمانْ
وعن الطفل لها قد رامَ طردْ غير انَّ النفس فاضت بالحنانْ
سبحت زهراء تحكي نورَ وردْ نحو طفلٍ حبهُ راحُ الجنانْ
أدركت صيدًا رأتهُ مغنما سحبتهُ بذراعٍ أملسِ
وعلى الخدَّين منها انسجما ماء كِبرٍ وحياء قدسي

١١ شقَّتِ البحر بصدرٍ من لُجينْ وسعت بالمهدِ نحو المنزلِ
والجواري خائفاتٌ قُربَ حينْ إذ تراءت بثيةٌ في وَهلِ

إنما الغادةُ فازت بعد أينْ ... واتت بالطفل فوق الدَّغلِ
والعذارى رُمنَ إرواء الظَّما ... بشفاهٍ طيبات اللَّمَسِ
فكسونَ الطفلَ حين ابتسما ... قبلًا بالوصف لمّا تُقَسِ

١٢ عجّلي يا مَنْ بعيدًا وقفتْ ... تتبعُ الطفلَ بلحظِ الحائرَه
سَكّني نفسًا عليه ارتجفتْ ... فعليهِ عينُ ربٍّ ساهرَه
فتعالي لا كأمٍ عُرِفتْ ... بل كناظرِ حُبٍّ أمٍ ساترَه
لا تخافي أنْ تضمّيهِ كما ... تفعلُ الأمُ بمجالِ الحوَسِ
ليس يُفشي سرّكِ الوجدُ فما ... بِثيَةٌ أمًا فطيبي وأنسي

١٣ بينما الورقاء كانت تسجعُ ... لرضيعٍ ضمَّ آياتِ البها
ذهبت عند ابيها تشفعُ ... بصبيٍ عينهُ عين المها
وعلى خدّيهِ ضاءت ادمعُ ... سفحتها أمهُ ممّا بها
أنما الاملاكُ تشدو هُنا ... بالسما في حبِّ ربٍّ اقدسِ
فاسمعي يا ارضُ هذا النَّغما ... من سنا موسى السني اقتبسي

١٤ يا بني يعقوبَ كفُّوا الادمعا ... واصبروا فالصبر عقباه النجا
وافصلوا دمعًا سخينًا همعا ... عن مياه النيل اذ تمَّ الجلا
أنما الأردنُّ فيكم وَلِعا ... فاسمعوهُ صارخًا وافى الصفا
يا بلاد الوعد طيبي مبسما ... أرضَ جاسانَ اخربي واندرسي
يا بني الميعادِ هيُّوا للحمى ... انَّ موسى هادمٌ للمَحْبَسِ

١٥ يا لطفل فوقَ امواجٍ طفا ... خلّصتهُ البكرُ من ايدي الممات
انهُ في طُور سينا المصطفى ... وكليمُ اللهِ ربِّ الضَّرَبات
يا بني الانسان كفُّوا الصَّلفا ... واخضعوا للهِ مبدي المعجزات
انَّ مهدًا سينجي بالدّما ... إسرئيلًا من اراضي التَّعَسِ
انَّ مهدًا سينجي الأُمما ... من جحيمٍ بالصليب الأقدسِ

يمين العلي

روابة تاريخية للاب س. ت اليسوعي (تابع)

فلما سمعت يهوديت كلام اخيها في حق المسيحيين اضطربت افكارها وخيّمت على قلبها غيوم الهموم اذ انها كانت اجتمعت بكثيرين من المتنصرين في بيروت فوجدتهم دمثي الطباع مهذّبي الاخلاق. وكانت قهرمانتها دوروتيا مسيحيّة وكذلك جمعٌ من عبيد دار ابيها... فيا تُرى لو عرف يوسف اخوها بهم ماذا يفعل... فارادت ان تصرف عنهم فكره ُ فقالت:

اراك تحب الرومانيين وقياصرتهم وتريد ان تكسب رضاهم

— لا حيّاهم الله ولا بيّاهم. وكيف احبُّ رومية وملوكها وهم يوغرون منّا الصدور ويستثيرون دفين الاحقاد. قد اشهروا لاورشليم مدينتنا المقدّسة حربًا اثيمة ولكن لي الثقة الوثيقة انهم لا ينجحون في ما نووا لانّ يمين العلي تصونها. وكان نيرون ارسل قسمًا من جنده ليناجزوها القتال فاتاهُ الله بأن قوي عليه احد مماليكه. فهذا جزاء من يمدّ يدهُ الى بنت صهيون ومدينة داود. ومذ ذاك الحين لم تذق رومية هناء في امورها. ففي سنة واحدة تنازع ولايتها ثلاثة قياصرة. وقد رأيتُ قبل بضعة ايام قومًا من الاوباش يجرّون في شوارع رومية جسم ڤيتاليوس الذي كانوا حيّوهُ سابقًا باسم القيصر قال هذا واطرق واجمًا ثم اردف قولهُ:

وفي غد ذلك اليوم بايع مجلس الشيوخ لڤسپسيان الذي كان الجند سبقوا فنهبوا دارهُ قبل يومين. ولا ريب ان سينالهُ ما نال نيرون لانهُ اراد خراب مدينتنا اورشليم وقد رأيتهُ آخرًا في الاسكندريّة فتأكدت انّ ايّامهُ معدودة

وكانت يهوديت في غضون ذلك ساكتة متحيّرة وهي تفكر في ما يغلي في قلب اخيها من مراجل العداوة للرومانيين حتى خافت من ان يبلغهُ ما فعل يهود بيروت في الليلة البارحة اذ شاركوا الاهلين بزينة حيّهم لمّا بلغهم فوز ڤسپسيان الذي استعبد الوفا من اهل جلدتهم

أمّا يوسف فبقي هنيهةً غائصاً في افكاره ثم عاد الى فكاهة طبعه وقال لشقيقته:
أستميحكِ عذرًا يا اختاه فاني أسمعتُكِ كلامًا رثّ صفاء عيشكِ فاحفظيه كسرّ ولا تُعلمي به احدًا حتّى ابانا يعقوب نفسهُ فان والدي رجل تاجر لا يفقه غير معاملات البيع والشراء فاذا بلغهُ ما قلت حسبني معتوهًا... وقد قلتُ ما قلتُ امامكِ لاني لا اخفي عنكِ شيئًا وازيدك علمًا باني انتظمتُ بسلك الذين يدعَون بالغيورين الذين همّهم ان يعيدوا لمدينة داود رونقها القديم... والآن سرّي عنكِ ودعينا نقضي أيامًا قليلة في السرور والفرح قبل ان افارقك لتتمّة مقاصدي

قال هذا ثم قبّل اختهُ في جبينها وخرج يترنّم باغنية يونانيّة فبقيت يهوديت في حجرتها وحدها تردّد في فكرها ما سمعت من اخيها... فهذا الاخ العزيز الذي كانت تتوق الى نظره قد رأتهُ في حالة لم تخطر لها في بال فانّها ما كانت لتظن انهُ واغر الصدر على رومية واهلها. وان كانت في قلبه حزازات مثل هذه كيف ترجو ان يتمّ فرحها بذلك الضابط الروماني الذي خلب عواطفها ؟ او يسمح اخوها باقترانهما البتّة ؟

الفصل الخامس

في الحرب

مرّت الايّام وانقشعت عن قلب يوسف همومهُ بما لقيهُ من اللاطف واماثر الحبّ بجوار شقيقته التي كان يصافيها الوداد ويخلص لها الاخاء منذ نعومة اظفاره فكان يقضي بصحبتها ساعات اشهى لديه من شهد العسل يناجيها في احواله ويقصّ عليها اخباره في أُمهات المدن ويصيخ اليها سمعًا ثم تحدّثهُ هي بامورها وما جرى لها في غيبته الطويلة. وقصارى القول انّ الشقيقين كانا يعدّان ايّام التلاقي اقصر من طرفة العين لما يرشفانه من كؤوس الهناء. حتى انهُ خُيّل ليهوديت انّ اخاها لم يَعُد يفكّر في الفراق فقالت لهُ يومًا وهي تداعبهُ :

يَسُرُّني أن ارى تلميذ الفلاسفة يرضى بالسكنى في بيروت وان لم يلاقِ فيها من ضروب الملاهي والالعاب ما لقيهُ في اثينة. وكأني بك لم تنفر من سماع لهجتنا اليونانيّة التي إخالك تحسبها رطانةً لمّا تقابلها بطلاوة كلام السيّدات اللطيفات في عاصمة اليونان... هيّا اسرع بالرحيل لئلّا يأخذ لسانك على كلامنا البربريّ وعاداتنا الهمجيّة

فكان يوسف يبسم لهذا القول ضاحكاً فيجيب اختهُ :

اصبتِ يا أُخيَّة فانَّ هذا هو الاسبوع الثالث مُذ وطئتْ قدمي ساحل بيروت وها قد قرب شهر شباط فكان الاحقّ بي ان اهجر الديار لكنَّ لطفك سباني فثبَّطني عن المسير. ثم انَّ والدنا يعقوب لم يَعُد حتى الآن . . .

فما سمعت يهوديت اسم والدها حتى قطَّبت وكاح وجهها لأنَّها كانت ترى في تأخرهِ داعياً للقلق لاسيَّما انهُ لم يُنفذ اليها برسالةٍ منذ بضعة اسابيع. فشعر يوسف باتروائها وندم على ما فرط منهُ فاردف قولهُ :

لا تقلقي يا عزيزتي لتأخر والدنا في القدس الشريف ألم تفيديني عنهُ انهُ يريد حضور عيد الفصح في اورشليم. وامَّا رسالتهُ فان شاء الله تردنا عمَّا قليل

قال يوسف هذا ليطمّن اختهُ لكنهُ في حقيقة الامر كان مشغول الفكر كاسف البال لا يعلم ماذا يحلُّ باورشليم وسكَّانها. اجل انَّ المدينة مذ تبوَّأ قسبيان سُدَّة الملك قد أُرخي عنها الخناق وخفَّت اهوال الحصار. ولكن أُرى انَّ هذه الهدنة تدوم زمناً طويلاً. تلك كانت الهواجس التي تخالج فكر يوسف فاحبَّ ان يكتمها عن اختهِ

قالت يهوديت : انَّ كلامك يا اخي يُسرّي عني بعض همومي لكنهُ لم يسكّن بلبالي تماماً. وكاني احسُّ بالدهرِ واقفاً لنا بالمرصاد يتهدَّدنا بقوارعهِ. وممَّا زاد قلقي حلمٌ احتلمتهُ في بعض لياليَّ السابقة. خُيّل لي اني في مرسح الالعاب والقوم يضجُّون باصوات الفرح ويهلّلون بينا كان المصارعون يقاتلون الضواري في ميدان المرسح. واذا كذلك واذا بأسد هائل اسود برز للقتال وهو يزأر وبازائهِ والدي العزيز يحاول ردَّهُ عنهُ. فذُعرتُ وكاد قلبي يطير شعاعاً لاسيما اذ رأيتُ بقعاً من الدم على الحضيض فصرختُ صرخةً افاقتني من نومي وانتبهتُ لها دوروتيا أَمَتي فبادرت اليَّ لتسكن جأشي. لكنَّ فرائصي تُرعد كلَّما تصوَّر لي هذا الوحش الضاري . . .

— ما هذا يا أُخيَّتي اتصدّقين انتِ ايضاً اضغاث الاحلام . . . دعي عنك هذه الترهات. امَّا انا فقد نبذت مثل هذه الخرافات فلا اعيرها بالاً. وكم من مرَّةٍ رأيتني في الحلم اقلّب ركام الذهب فما كنت عند الصباح اغنى مني في المنام ولا ارى أسداً الَّا كدنانيري

*

وفي تلك الغضون كان الضابط راسيوس قد شُفي من جرحهِ الشفاء التام وهو لا يزال في مصيف لوقيليوس المبني فوق الربوة المشرفة على نهر بيروت ينتظر اوامر الامبراطور ليعود الى فيالقهِ. لكنَّ جلوس القيصر الجديد لم يكن ليسمح لهُ بعد ان يهتمَّ بامر الجيوش ويستدعي الضبَّاط الذاهبين بالرخصة. وعليهِ فكنت تراهُ يقضي أيامهُ على جوادهِ تارةً يخرج الى الصيد في غابات لبنان المجاورة لبيروت يسابق فرسان البلد في مراتع الخيل على رؤوس الملإ من الاهلين الذين كانوا يتقاطرون الى معاينة هذه المشاهد البهجة وكان اسم راسيوس شائعاً على ألسنة القوم لما عهدوهُ فيهِ من الفروسيَّة والإقدام وربَّما حكموا لهُ بقصبة السباق على اقرانهِ

وكان لوقيليوس صديقهُ يُسَرّ بما يراهُ فيهِ من انجلاء الهمّ عن قلبهِ وفراهة طباعهِ ولم يَعُد يسمعهُ في معرض الحديث يذكر الفتاة التي فتنت قلبهُ فظنَّ انَّ كلامهُ عمل في صديقهِ وصرفهُ عن عواطفهِ نحوها وميلهِ اليها

لكنهُ خُدع بالظواهر فانَّ جرح قلب راسيوس لم يلتئم بعد بُرئهِ من سهم البرتيين وانَّما كان كلام لوقيليوس حاكَ في نفسهِ مدَّة يوم او يومين فقط ثم عادت آمالهُ فانتعشت فيهِ بل زادت قوَّتها لكنهُ كان يخفيها عن صديقهِ ويكتمها في طيّ صدرهِ

وكان منذ مساء النهار الذي فيهِ تلاقى بمحفَّة السيدة المجهولة على طريق مغارة الحمام قد مرَّ عليهِ عشرون يوماً لم يألُ جهدهُ في لقاء ذلك الموكب وهودج تلك السيدة مرَّة أخرى غير انَّ مساعيهُ كانت تحبط فيعود المساء بخفَّي حنين

فاحبَّ يوماً ان يركض جوادهُ قريباً من دار الورود علَّهُ يرى وراء حواجزها تلك التي استهوت قلبهُ فكان يجد الدار مقفلةً لكنهُ عاين الورود التي تزين المنافذ وهي ناصعة الالوان زاهية تتعطَّر من اريجها الارجاء. فاكتفى بهذا الدليل ليمنّي نفسهُ بالآمال الطيبة

وكان يخال لهُ انَّ امانيهُ ستتحقَّق يوماً الَّا انَّ الآلهة لا تمنحهُ مبتغاهُ حتى يكون فاز باكاليل الانتصار بعد حربٍ يشهرها لاعداء رومية على ثغور المملكة فيعود ظافراً وعلى رأسهِ اكليل الغار شارة المنتصرين. وكانت مخيلتهُ تصوّر لهُ حفلة دخولهِ المدينة اذ القوم يتناشدون بمديحهِ والامبراطور يجعل في اصبعهِ خاتم الفرسان. فلا بدع ان ذلك

اليوم سيفتح لهُ ايضاً باب دار الورود فيُحظيهِ صمونيل بيد ابنتهِ يهوديت فيقضي معها عيشة السعادة والرخاء.

تلك كانت افكار راسيوس الضابط تهجس في صدره مدَّة انتظارهِ لاوامر القيصر. وكانت الحرب على وشك الاتقاد وهو لم يدرِ انَّ دارها قريبة منهُ وانهُ سينتضي سيف الحسام على قوم تربطهم ويهوديت اواخي الدين والجنسيَّة (ستأتي البقيَّة)

الحفريّات والمستحجرات

للاب غدفريد زُموفن اليسوعيّ مدرّس الطبيعيّات في كليَّة القديس يوسف

وعد المشرق بان ينشر فصلاً في المستحجرات فاسرعنا الى كتابة هذه النبذة وفاء بالوعد فنبيّن اولًا ماذا يراد بالمستحجرات وما هي خواصُّها وشروطها ثمَّ نذكر اصنافها على حسب ازمنتها في الطبقات الجيولوجيَّة

١

اعلم انَّ بعض الكتبة الشرقيين لمَّا نقلوا عن العلماء الجيولوجيّين مقالاتهم في طبقات الارض وما وُجد فيها من آثار الاجسام الآليَّة كالنبات والحيوان والعناصر المتبلورة والموادّ المعدنيَّة اطلقوا على كلّ ذلك اسم المستحجرات وهم يريدون بالاجمال الاجسام الحفريَّة وليست المستحجرات الَّا قسماً من هذه الآليَّات وعليهِ لا نرى بُدًّا من تعريف الحفريّات عموماً قبل ذكر المستحجرات خصوصاً فنقول:

انَّ الحفريّات (fossiles) تكون على ثلاثة اقسام:

(القسم الاوَّل) منها يشمل البقايا الآليَّة التي حُفظت في قلب الارض دون تغيير في تركيبهِ الكيمويّ الذي كان عليهِ في الاصل مثال ذلك العظام والقرون والاظافير والاصداف وخراشف الاسماك وبيوت السلاحف وقطع الاخشاب. على انَّ هذه الآثار لا تُرى في تركيبها الاصلي تماماً بل يطرأ عليها بعض التغيير اللهمَّ الَّا في طبقات الارض العليا. وانَّما يتزايد تغيُّر تركيبها على قدر اختلاف بُعدها عن طبقات الارض الظاهرة.

كانت عليها وقت حياتها فاكتسب هيئة الاجسام المعدنيّة وصار شبيهاً بالحجارة وهي المستحجرات بحصر القول ألا انّ آثار تركيب عناصرها الباطني وصورتها الخارجيّة تدلُّ دلالة بيّنة على اصلها الآليّ من نبات او حيوان

(القسم الثالث) من هذه الحفريّات اوسع نطاقاً من الصنفين السابقين وهو يطلق على كلّ اثر او صورة لاجسام حيّة ذهبت اعضاؤها واقسامها الاصلية لكنّها ابقت في باطن الارض هيئتها وشكلها . فتارةً يُرى في الارض تجاويف فارغة دالّة على تلك الاجسام البائدة وتارةً قد تخلّل في تلك التجاويف موادّ معدنيّة اخذت صورتها فصارت كمثالها الحقيقيّ واشكالها الناتئة . وهكذا قد بلغنا هيئات متعدّدة لحيوانات رخوة هلاميّة تُرى في طبقات الارض السُّفلى . فاندثرت هذه الحيوانات ولم تندثر صورتها المرسومة في التربة . ومن ذلك هيئة لحوم بعض الحيوانات وآثار مخالب بعض الطيور الغريبة والاسماك البائدة

والعلم الذي يبحث عن هذه الحفريّات على اختلاف اقسامها يُدعى باليونتولوجيا وهي كلمة تتركّب من ثلاثة الفاظ يونانية . معناها علم الكائنات القديم (παλαιός قديم ; ὤν ὄντος كائن ; λόγος علم) . وهو يتفرّع الى فرعين كبيرين فرعٌ منهُ يبحث عن النبات الحفريّ وفرع عن الحيوانات في باطن الارض وطبقاتها المختلفة بل كثيراً ما تُعاين آثارها في قلب الصخور فيا ليت شعري كيف تطفّلت . اعلم انّ الجواب عن ذلك يقتضي درس علم الجيولوجيا اي كيفيّة تكوّن الارض وطبقاتها وما طرأ عليها من الاحوال بعد ان خلقها الخالق . وخلاصة القول انّ هذه الطبقات رواسب تجمّعت موادّها ببطء في قعر البحار وتراكمت وتنضّدت موادُّها في اطوار من الزمن لا يمكن حدُّها فحُفظت فيها هذه الاجسام الآليّة على حسب اختلاف هذه الاطوار الجيولوجيّة فترى لكل طور منها بقايا وآثاراً لا تراها في الطور الآخر

وان سأل سائل عن الشروط المقتضاة لتكوّن هذه الحفريّات . قلنا انهُ لامر معلوم انّ الآليّات من النبات او الحيوان اذا عملت فيها العوامل الخارجة كالهواء وغيره لا بُدَّ لها بعد موتها ان تفسد شيئاً فشيئاً وتتلف . ولكن ربّما وقعت هذه الاجسام او قسم منها في مستودعات تكون لها بمنزلة الغلاف يصونها من عوامل الفساد

وربّما توقّفت صيانة قسم من هذه الاجسام على احوالها وطريقة معاشها فانّ

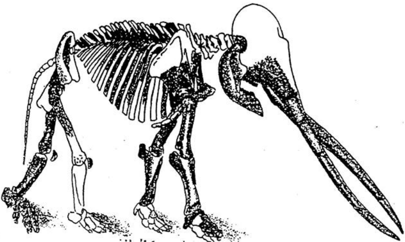
(الصنف الثاني) من الحفريّات ما فقد منها الخواص اليمويّة الاصليّة التي بعضها كالحيوانات المائيّة اذا ماتت وقعت جثتها في الطين اللزج او غاصت في الرمال فتبقى مطمورةً ما شاء الله وتضحي بعد اجيال في جملة الحفريّات. وهذا ما جرى للمحار الحيوانات الحلزونيّة فانّ عددًا منها لا يُحصى قد وُجد في طبقات الارض السُّفلى وقد ساعد على تحجُّرها ما عليها من الاصداف المتركبة من كربونات الكلس. وفي وادي صليما في المتين وبجوار دير مار عبدا هرهريّا بكسروان طبقات كثيرة من اصدافها المتحجرة

وليس الامر كذلك في الحيوانات الكبرى ذوات الثدي وفي الطيور فانّ جثثها لم تسلم الّا اذا طرأ عليها حوادث غير عاديّة بان تكون مثلًا خُسفت بها الارض او غاصت في ردغات المستنقعات او وقعت في وهاد تغطّيها الثلوج

امّا النبات الذي يذوي بكل سرعة فانهُ يتحجّر بفعل مياه بعض العيون ذات المواد المحجرة كالكلس والمادّة السيليسيّة او بسقوطهِ في اوحال او تربة صلصاليّة تغطّيه فتصونهُ مع زهره وحبوبه

ولا بدّ لكل هذه الاجرام لتسلم من الفساد ان يكون صوانها صفيقًا يمنع نفوذ الهواء اليها امّا بتكوُّن مادّة صدفيّة حولها او بان يُحدق بها طين لزج او جليد. وهذا ما جرى لبعض الحيوانات الضخمة كالممثوث في صحاري سيبارية المتجمّدة فقد وُجدت هذه الحيوانات مصونةً بتمامها حتى لحومها وجلودها وشعرها كما كانت يوم طُمرت في هذا الجليد حتى انّ لحمها كان طريًا بعد ألوفٍ من السنين أُلقي منهُ للكلاب فاكلتهُ بشهوةٍ وهكذا ايضًا دُفنت بعض الهوامّ التي وجدت في غُلُفٍ من المواد الراتينجيّة. ومثلها بعض الاصداف صِينت في رواسب من المواد الخزفيّة

واذا استثنيت هذه الظروف غير العاديّة قلّما تجد جسمًا آليًا لم يُصبهُ بعض التغيير في اجزاء جوهرهِ على قدر ما سرت اليهِ عوامل الفساد وعلى قدر صبرهِ على هذه المُتلفات. واثبت ما في الحيوان على هذه عوامل الانحلال انيابهُ وعظامهُ وقرونهُ واصدافهُ فانّها لا تكاد تتغيّر مع الزمان لما يدخلها من المواد الصلبة المتكوّنة من فسفات الكلس الذي هو من اصلب الاجسام واقلّها انحلالًا. وربّما وُجدت هذه الاقسام على حالتها الاصليّة دون ان يطرأ عليها طارئ الفساد بتخلّل موادّ اجنبيّة في جوهرها



الستودنت



میناتریوم



پلسیوزور



اِختیوزور

٢

هذا وانَّ من انعم النظر في طبقات التربة تحقَّق انَّ لكل طبقة اجساماً آليَّة مختصَّة بها دون غيرها منها تُعرَف اطوار كرَتنا الارضيَّة معرفةً تامَّة وهذه الاطوار دامت عدداً من القرون والسنين لا يعرفها الَّا الله. واكثر ما تُقسَم هذه الازمنة الى اربعة اقسام يتشعَّب كل قسم منها شُعباً عديدة

(الطور الاوَّل) هو أوغلها في القدم وفيه ظهرت الحياة باديَ بدءٍ على وجه الارض. فان كرتنا بعد ما طرأ عليها من التقلُّبات البركانيَّة والطوارئ الجيولوجيَّة نمت فيها انواع النبات نموًّا غريباً لحرارة الارض الطبيعيَّة في ذلك العهد وكثرة الحامض الكربونيّ الذي يحلِّلهُ النبات فيقتات من كربونهِ. وكان في ذلك الزمان من النبات الجبَّاري والادواح العظيمة والغابات ما بقي كثير من آثارها في سافات الارض السُّفلى والفحم الحجري. امَّا الحيوان فظهر منهُ بعض ذوات الفقرات منها بريَّة قليلة كالزحَّافات ومنها بحريَّة كالاسماك. ثم بعض السراطين اخصُّها نوع يُعرف بالتريلوبيت (trilobite) فُقِد بعد ذلك وهو على شكل ترسٍ بيضويّ ذو حلقات متعدِّدة. ثم بعض الاصداف منها الليتويت (lituite) والمحارات. ثم حيوانات بلا عظام طويلة الجوارح

(الطور الثاني) وقد طال زمنهُ وتوفَّرت عجائب مخلوقاتهِ. وممَّا امتاز بهِ هذا الطور كثرت حيواناتهِ ذوات الفقرات فترى منها ضروباً غريبة الهيئة عظيمة البنية منها زحَّافات كالاختيوزور (ichtyosaure) والپليسيوزور (plésiosaure) تراها كالتماسيح طولها ستَّة امتار بتيّف وبعضها ذوات اصابع مجنَّحة (ptérodactyle) ومنها طيور ومنها حيوانات هلامية واصداف. ومنذ هذا الطور الثاني ترى ذوات الثدي الَّا انَّها قليلة وصغيرة الشكل ولهذه الحيوانات غُلُف طبيعية تصون فيها صغارها. والمحارات المعروفة بالأَمونيت (ammonite) لا تكاد تُحصى في هذا الطور وفي اطوار الحجارة الطباشيريَّة ثم لم يبقَ لها اثر بعد ذلك.

(الطور الثالث) يُفرز من الطور السابق بكثرة حيواناتهِ من ذوات الثدي اكثرها غليظة الجلد (pachyderme) متناهية في الكبر كانت تتجوَّل في الاودية والغابات كملوكٍ في املاكها. وقد ظهر منها انواعٌ شتَّى كالباليوتريوم (paléotherium) والاناپلوتريوم (anaplotherium) والهينودون (hyénodons) ثم بعد مدَّة الدينوتريوم

(dinotherium) والمستودنت (mastodonte) وبعض اشكال القرود الضخمة. ثم في آخر هذا الطور نُرى آثار الحيوانات المجترّة والسباع الضواري. امّا الانسان فلم يقف العلماء حتى الآن على آثاره في ذاك الزمن وانّما يحدسون بوجوده حدساً فقط

(الطور الرابع) يمتاز عمّا سواهُ بظهور الانسان على الارض. ومذ ذاك الحين لا نعود نجد على الارض آثار انواعٍ جديدة من النبات والحيوان وبعكس ذلك نرى ضروباً من الحيوانات الغريبة التي شاعت في اوّل زمن الانسان قد بادت آثارها لاسيّما حيوانات من ذوات الثدي كالمثوث الذي كان يبلغ علوّه اربعة امتار وكالمِغاتريوم الذي كان طولهُ خمسة امتار والأيّل القديم وكبعض الطيور الغريبة وحيوانات اخرى نُرى في متاحف اوربّة في جملة الحُفريّات والمستحجرات. وعليهِ فلا صحّة لما جاء في كتاب مشهد الكائنات (ص ١٧٤) « بانّ ذوات الثدي قلّ ما يُشاهد منها مستحجراً » فانّ مستحجرات ذوات الثدي كثيرة منها في بطرسبرج ولندن وباريس ومدن غيرها ولعلّها اكثر عدداً من سواها. والله اعلم

مطبوعات شرقية جديدة

Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines
par Daremberg et Saglio, (fasc. 33, *Hachette,* 1902)
معجم العاديّات اليونانيّة والرومانيّة

يتابع مؤلفا هذا المعجم النفيس الذي سبق لنا وصفهُ (المشرق ٥ : ١١٠٠) عملهما بهمّة لا تعرف مللاً. وفي هذا الجزء الذي يحتوي على موادّ قسم من حرف الميم (MED-MET) فصول عديدة كلّها تدلّ على علم غزير واطلاع واسع كفى باسماء كاتبيها شهرةً وضماناً لصحّتها منهم العلماء ريناخ ولافاي وساغليو وكانيا وغيرهم كثيرين. ولو سمح لنا المقام لاتّسعنا في وصف بعض الموادّ الّا انّ كل مقالة منها تستدعي شرحاً طويلاً وانّما نكتفي بذكر الفصول التي تبحث عن الطبّ والتطبيب عند الرومان واليونان (Medicus) وعن التسوّل والاستعطاء (Mendicatio) وعن التجارة

(Mercator, Mercatura) وعن عطارد الاله (Mercurius) في اربعين عموداً.
فلعمري انَّ من يطّلع على مثل هذه المعاجم يُعرف ما لاصحابها من الفضل ولا يتمالك عن شكر من يقوم بمثل هذه الاعمال الاب ل. جلبرت

Choiseul et la France d'Outre-mer
par E. Daubigny, in - 8° XVI - 352, *Hachette.*
المستعمرات الفرنسويَّة في عهد الوزير شوازول

بعد معاهدة باريس في سنة ١٧٦٣ كانت مستعمرات فرنسة اضحت في حال يُرثى لها فضلاً عمّا فُقد منها بالحروب. فلمّا تقلَّد شوازول وزارة لويس الخامس عشر حاول ان يعيد لهذه المستعمرات في غوانة ومداغسكر والهند وسواحل افريقية وجزائر فرنسة وبوربون شيئاً من رونقها القديم. وقد جمع المسيو دوبيني في سجلّات وزارة البحريَّة والمستعمرات ما لقيهُ في هذا الشأن وبيَّن ما يعود الى شوازول من الفضل في ذلك وكيف احرز لدولته بعض الفخر وان لم تساعدهُ الاحوال على الفوز برغوبهِ

Le prétoire de Pilate et la forteresse Antonia
par le P. Barnabé d'Alsace, O. F. M, Paris. *Picard*, XXIII - 251, 1902
دار ولاية بيلاطوس وقلعة انطونيا

من اراد البحث عن تاريخ النصرانية في القدس الشريف لا يمكنهُ ان يضرب صفحاً عن آثار آلام المخلّص في تلك المدينة. وحضرة الاب برنابا المرسل الفرنسيسي ممَّن يخوض في مثل هذه الابحاث منذ سنين قليلة وقد اشتهر بتآليف سابقة مهمَّة عن جبل طابور وتجلّي المسيح عليهِ وعن موقع عمواص المذكورة في الانجيل. وفي الكتاب الذي نحن في صددهِ قد تحرَّى حضرتهُ بيان موقع دار ولاية بيلاطوس البنطي حيث جُلد السيّد المسيح وكُلّل بالشوك وحُكم عليهِ بالموت. ورأيهُ في ذلك يخالف مزاعم بعض المحدثين ويوافق التقليد القديم بان هذه الدار هي قلعة انطونيا القديمة التي شيَّدها هيرودس الكبير شمالي غربيّ الهيكل الواقعة قريباً من الثكنة العسكريَّة ودير راهبات صهيون على عهدنا. وقد اتى لتأييد قولهِ بشهادات متعدّدة لقدماء الكتبة واسند رأيهُ الى الآثار والعاديَّات المكتشفة حديثاً في اورشليم من ذكر الكنائس التي بُنيت ثمَّت في كرور الاجيال. وخلاصة القول انَّ في هذا الكتاب لُباب التآليف السابقة عن قضيَّة

دار الحكمة الرومانيَّة أيام الخلاص مع عدد وافر من الرسوم والتصاوير التي تقرّب ادراك هذه المطالب الشائقة. لكنّنا وددنا لو حايد المؤلف في معرض كتابته بعض الاقوال القارصة في حقّ الذين ليسوا على رأيه وخصوصاً حضرات الآباء الدومينيكيين الافاضل
الاب س. رتزفال

ثلاث روايات

للراوي اسكندر دياس الكبير معرّب بقلم فرح انطون منشئ الجامعة

ان لاسكندر دياس بضع مئات من الروايات كتبها ليفكّه بها اهل عصره وهي اليوم منسيَّة لا يكاد يعرف اسمها الَّا محبّو الانتيكات وقد ظنّ منشئ مجلّة الجامعة انّ قرّاء الشرق يجدون في هذه البضاعة الكاسدة لذّة اذا نقل منها الى العربية ثلاث روايات يزعم انّها تاريخيَّة. والحقّ يقال انَّها تبعد عن التاريخ بُعد الثريَّا عن الثرى. ونكتفي لتأييد قولنا بذكر قصّة الحدَّاد «كامين» او «جامين» التي فنّدها في المشرق حضرة الاب لويس دي انسلم ردًّا على مقالة المقتطف المُعنونة «صفحة من تاريخ فرنسة» ونتعجّب كيف معرّب هذه الروايات ذكر مقالة المقتطف في هذا الصدد وضرب صفحًا عن جوابنا عليها
ل. ش

شذرات

الهلال ووجود الخالق اخطأ الهلال في عدده الصادر في ١٥ شباط اذ قال (ص ٣١٧) عن وجود الخالق: «انَّ البحث في وجود الخالق سبحانهُ وتعالى من المواضيع العقيمة التي يرى العقلاء العدول عنها اذ يستحيل اثباتها بالبرهان» ليت شعري كيف يستطيع منشئ مجلّة ادبيَّة كالهلال ان يقول بمثل هذا القول الذي ينافي اقوال كلّ الفلاسفة الأثبات من يونان ورومان ونصارى ومسلمين ويهود وكلّهم لسان واحد في اثبات قضيَّة وجود الخالق بالبرهان العقليّ فضلًا عن الدينيّ. وادلَّتهم سواء كانت محمولة على برهان العلَّة والمعلول لبيان كون الخالق هو العلَّة الاولى او على برهان وجود عالَم ذي نظام شاهد لمنظّمه بأنَّهُ الخالق سبحانهُ وتعالى او على برهان الحُدث

الدالّ على القديم او على المتحرك الذي يعود الى محرّك اول تبيّن كلّها هذه القضيّة بياناً قطعياً لا ينكرهُ الّا الملحدون (راجع المشرق ٤:٩٦١) مقالة بولس الراهب في وجود الباري تعالى وكمالاتهِ وكتاب تهذيب الاخلاق لابن مكويه وكتاب الفوز الاصغر المطبوع في مطبعة ثمرات الفنون ·

احماء السفن بالبترول — قالت جريدة المانن ان السفينة كلام الانكليزيّة قطعت المسافة التي بين باتوم وسدني غير مستعملة سوى البترول السائل مكان الفحم · وقد انتصت الثلث من نوتيّتها في سفرها المذكور ومع نقصهم زادت سرعة مسيرها نصف عقدة طول مدّة السفر · وكانت مقطوعيتها من الفحم كل يوم ٢٦ طناً غير ان مقطوعيتها من البترول اقتصرت على ١٨ طناً لا غير

الياقوت الصناعي — توصل المسيو فرنويل احد الكيماويين الى عمل ياقوت صناعي يشبه كل الشبه الياقوت الطبيعي · امّا كيفيّة العمل فهي دقيقة ومعقدة وهي ان يذوّب الالومين في انبوبة ويُخاط بهِ ٢٥ في المائة من اوكسيد الكروم لاجل تلوينه ثم تؤخذ المادّة المذوّبة وتلحم بسلك صغير من الالومين المتجمع مع كربونات البوطاس · وبعد ذلك يُذرّ على كرّية الالومين المذهبة غبار الالومين الممزوج بالكروم · وبواسطة تبريد فجائي تنشق المادة المتكونة على هذه الصورة الى شطرين متساويين يمكن المشتغل بالحجارة ان يجلوهما حتى يصيرا كالياقوت الحقيقي · على انهُ ما زال حتى الآن بين الياقوت الصناعي والطبيعي فرق جزئي لا يمكن تحقيقهُ الّا بنظّارة معظّمة قويّة (البشير)

الزرنيخ — هو من المعادن التي شاع ذكرها بين المواد السامّة القتّالة يكفي منها القليل لقتل الحيوان · ومما اثبتهُ حديثاً بالامتحانات المتكرّرة احد العلماء الفرنسيين الدكتور ارمان غوتيه من اساتذة المكتب الطبيّ في باريس انّ هذا المعدن لا يخلو منهُ حيوان سواء كان انساناً او بهيمة او طائراً وان لهُ فعلاً مهمّاً في اجهزة الحسّ والتوليد يقويها وينعشها ويجدّد حيويّتها وعليهِ فيصيب الاطباء الذي يصفونهُ للضعفاء البنية والمهزولين وفي امراض اخرى · واكثر وجود الزرنيخ في الجلد وملحقاتهِ وفي الدماغ والعظام

اسئلة واجوبة

خالج الشك بعض اصدقاء حضرة الاب انستاس الكرملي في صحّة ما كتبهُ في مقالتهِ عن النور انَّ بني ساسان هم النور بعينهم او الكاولية

قال حضرتهُ في جوابهِ :

لعلَّ فريقًا من قرَّاء المشرق الزاهر يُشاطرون هؤلاء الاخدان الافاضل في رأيهم غير اننا نستلفت افكارهم في مثل هذه الامور ان لا ينظروا الى مجرَّد لفظ الاسم او مقابلته بنظيرهِ او مرادفهِ او ما كان من هذا البـاب بل ان ينظروا الى المعنى الذي تفيدهُ الكلمة او الى جوهر الشَّيء وموصوفهِ. فقد رأيتَ ان اسماء النور في نفس أيامنا هذه تختلف باختلاف الأقطار بل وباختلاف الأقطار العربية كما ألمعنا اليـهِ مفصَّلًا في صدر هذه النبذة فهل يكون بعد ذلك من العجب ان نرى اسماءهم تختلف حتى بمرور العصور. وبالخصوص اننا نعلم أنَّهم لا يُسمُّون انفسهم باسمٍ واحدٍ ثابتٍ بل ولا يريدون ذلك. هذا ومن الادلَّة التي تزيدك بيانًا في هـذا الصدد فما عدا ما اسلفنا تعدادها ما يأتي :

١ انك اذا قابلت آداب واخلاق وعوائد نوَر هذه الايَّام بينها وبين ما جاء من مثل ذلك عن بني ساسان الذين ورد ذكرهم في كتب العرب المتفرّقة وبالخصوص في القصيدة السـاسانية التي نوَّهنا بذكرها غير مرةٍ وجدتها كانَّها قُدَّت من سيرٍ واحدٍ

٢ اسمع ما قال الشريشيُّ في شرح المقامة السـاسانيَّة للحريريّ (٢ : ٣٩٤) فانهُ يذكر ما نصهُ بحرفهِ: ساسان شيخ المكدّين والغرباء وهم بنو غبراء. والغـبراء الارض وسُمُّوا بني غبراء لقطعهم جهات الارض وجولانهم في البلدان فكأنَّهم ليس لهم أصل يُنسبون اليهِ الَّا الارض. وقيل سُمُّوا بذلك للزومهم غبراء الارض وجهها وترابها والرقاد فيها فيفتخرون بذلك ويتميّزون. انتهى. فهل ينطبق هذا الكلام على غير هؤلاء النور

٣ ان هؤلاء الاقوام بين الامم يُشبهون الدهريين بين العلماء فانَّهم كيفما ظهروا وباي صورة تمثّلوا وبين اي قومٍ نجموا ومهما اختلفت اسماؤهم يعرفهم مع ذلك الحكيم العاقل لاوَّل وهلةٍ لما يُبقُون بعدهم من الآثار على حد ما قيل:

تلك آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا الى الآثارِ

اصلاح بعض اغلاط طبعيَّة واقعة في مقالة النور (المشرق ٥) : الصفحة ٨٦٦ س ٩ ، « علما الاعلام » والصواب « العلمـاء » = ٨٦٨ س ٢ « كوچيدون » ص « كوچيدن » = ٨٦٩ « المصحَّفة من » ص « عن » — ٢١ « تأخـذ » ص « مأخذ » = ٨٧٠ « ان النورة » ص « ابن نورة » = ٨٧٣ س ٢٢ « البطائح » ص « البطائح » ٨٧٣–٨٧٥ « السـايجة » ص « السـابجة »